مُحَاضَرَاتٌ
فِي ٱلثَّقَافَةِ ٱلإِسْلَامِيَّةِ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

1428هـ - 2007 م

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان	دمشق - سوريا
ص.ب : 14/6364	ص.ب: 13414
خليوي : 833 814 3 961+	هاتف : 30 24 224 11 963+
تلفاكس : 135 541 1 961+	فاكس : 36 10 245 11 963+

www.kotaiba.com

E-mail : dar@kotaiba.com

مُحَاضَرَاتٌ

فِي ٱلثَّقَافَةِ ٱلإِسْلَامِيَّةِ

إبراهيم بشير الغويل

دار قتيبة

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

وبه نستعين

إن هذا «الكتيب» هو أحد ثلاث «كتيبات» دفعنا بها معاً للطباعة والنشر. . . وكل منها يمثل منهجاً فكرياً مُوصلاً إلى توضيح **مدى احتياج الإنسان، والناس كافة، إلى الإسلام احتياج ضرورة . . .**

ففي «كتيب» «ضلالات فتى حول كبرى اليقينيات» – ومن خلال رسالتي إلى خروتشوف خاصة – **عرضنا إلى منهج** يقول «إن كنت مدعياً فالدليل . . وإن كنت ناقلاً فالصحة» وقد ناقشت «الماديين» القائلين إن أصل هذا الوجود والحياة والإنسان هو «المادة»؟! . . مطالباً الدليل . . ومتّبعاً لهم بالمنهج العلمي المسلم به بينهم وبيننا . . . ثم ناقشنا أهل الدين والإسلام بتطبيق منهج «الشاهد والشهادة» على الأنبياء والرسل . . متخذين من «المعجزة» [و «معجزة» محمد صلى الله عليه وسلم – وهو آخر الأنبياء والرسل وخاتمهم – . . هي القرآن] دليلاً على النبوة والرسالة التي سمحت وتسمح له بأن يكون شاهداً على **الوجود الإلهي** الذي يقدم تفسيراً لأصل الوجود والحياة والإنسان . . . (تفسيراً) أكثر منطقية . . . ← ويكون «مسلّمة» أو فرضية postulate خصبة بنتائج متسقة مع هذه المسلمة أو الفرضية . . .

أما في «كتيب» «الشورى . . و «أولو» الأمر منا . . والشريعة . . . ومصطلحات أخرى» فقد قدّمنا **منهجاً في قراءة النص القرآني** يقوم على معاني مفردات القرآن التي تؤديها ألفاظها العربية المبينة – كما كان يفهمها أهل العربية في عهد نزول القرآن . . . ← **والأهم «ولا نجاوز في ذلك . . . فتحمل ألفاظ القرآن شيئاً من المعاني الباطنية أو الإشارية . . أو التأويلات المذهبية** أو النشاطات التي تنشط لها علوم العربية/ فتدخل نحواً منطقياً . . . بعيداً عن الطبيعة اللغوية؟! . . أو بلاغة فلسفية نظرية . . ناشئة عن الأجواء الفنية؟! . . . إلى ما وراء ذلك من اتجاهات لعلها قد استهلكت جهود كثيرين من رجال كثيرين . . لا نملك إلا أن نلتمس

لأصحابها المغفرة؟!.. لما أسدلوا من حجب على البيان القرآني «المعجز»؟! وما أقاموا من عقبات... إلى آخر ما شرحنا وأوضحنا»...

أما «الكتيب» الثالث وهو «**محاضرات في الثقافة الإسلامية**» فقد طبّقنا فيه منهجاً للتفكير: واقعي - عقلاني - علمي - عملي...

... ← وكما قلنا فإن «**الكتيبات» الثلاثة منتهية إلى مدى احتياج الإنسان، والناس كافة، إلى الإسلام احتياج ضرورة**... ذلك إن **الإنس ما خلقوا إلا ليكونوا متهيئين [والعبادة تهيئة الشيء لما يصلح له] للقيام بـ «أمانة» الاستخلاف في هذا الكون المسخر.. ← وهم لا يتهياؤون لما يصلحون له إلا بما يصلحون به.. ← وما يصلحون به هو كلمة «لا إله إلا الله» التي جاء بها الأنبياء والرسل عليهم السلام.. وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم**.. الذي جاء بالقرآن **مصدقاً لما «هو مشترك بين كل الأنبياء والرسل»** جاء به كل نبي رسول.. وجاء **مهيمناً** وبجماع لما «**اختص به كل نبي رسول**» وجاء به إلى قومه خاصة... فكان **إكمال الدين وختم النبوة**.. الذي جاء **متضمناً لكل الماضي.. مستشرفاً المستقبل.. وكان الدين عند الله الإسلام**... ماضياً وحاضراً ومستقبلاً...

12/ ربيع الأول/ 1417ق } من إكمال الدين واختتام النبوة
30/ 3/ 1375ش } بوفاة محمد صلى الله عليه وسلم
(2007ش من ميلاد السيد المسيح عليه السلام)

الفقير إلى ربه

إبراهيم بشير الغويل

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

وبه نستعين

منهج للتفكير

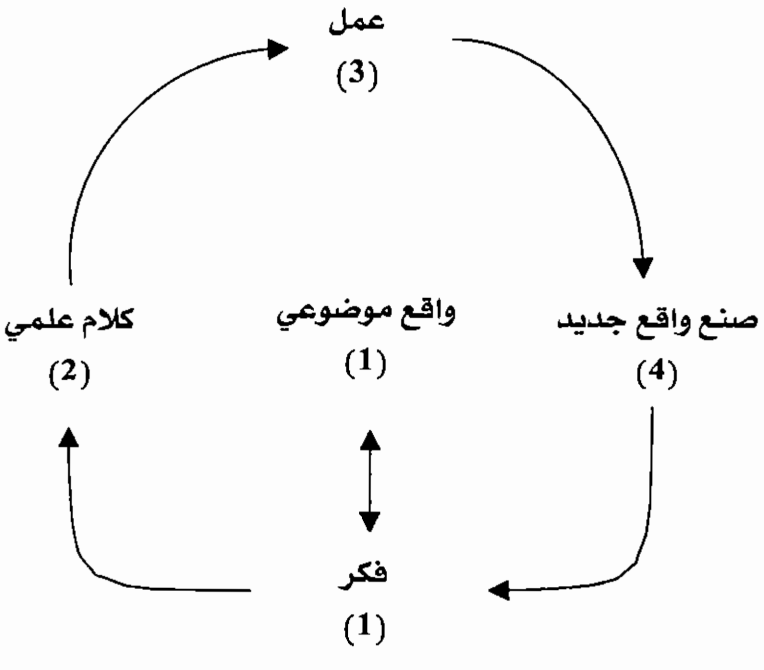

I
كيف نطبق منهج التفكير

أولاً: على الواقع الموضوعي الإنساني

1- في أي عصر نتناول دراسة هذا الواقع الموضوعي.

[الإجابة على «متى»]

2- في أي منطقة نتناول دراسة هذا الواقع الموضوعي.

[الإجابة على «أين»]

3- أي قوم نتناول بالدراسة من الواقع الموضوعي الإنساني.

[الإجابة على «من»]

4- أي تاريخ حضاري نتناول بالدراسة من هذا الواقع الموضوعي الإنساني.

[الإجابة على «كيف»]

5- لأي سبب وبأي غاية نتناول دراسة هذا الواقع الموضوعي.

[الإجابة على «لماذا»]

ثانياً: الفكر

1- من خلال الإجابات عن الواقع الموضوعي الإنساني وتكوّن الانطباعات الأولى تبدأ مهمة التفكير.

[بمعنى أنَّه بعد الاستقراء من خلال المشاهدة والملاحظة والإحصاء تبدأ مرحلة التمحيص].

2- وأول مرحلة هي التصنيف.. أي تحديد الأساسي والثانوي أو الجوهري والعرضي.

3- ثم فرض الفروض والاختيارات المطروحة.

4- تحديد الاختيار الذي يتمشّى مع اتجاهات العصر وطبيعة المنطقة وأهلها وتاريخهم.

ثالثاً: الكلام العلمي

1- أن يكون الكلام بعد التفكير . . أي بإعلان اختيار أو معالجة للواقع وليس مجرد حديث عن الواقع .

2- أن تعلن المعالجة بمصطلحات أو مفردات محددة .

3- أن يفرق في الكلام بين :

أ- إعلان الاختيار والمعالجة .

ب- [وسيلة] تنفيذه .

جـ- [الشكل] الذي ينفذ به .

رابعاً: العمل

1- أن يكون محدداً في [خطة] و [إستراتيجية] مع ترك المرونة في [التكتيك] .

2- أن توزع الاختصاصات ، وبقدر الاختصاص تكون المسؤولية .

3- أن يُحَدَّد [الزمن] و [المواقع] و [الأشخاص] و [الكيفية] .

4- أن تكون حلقة العمل مترابطة على أساس من :

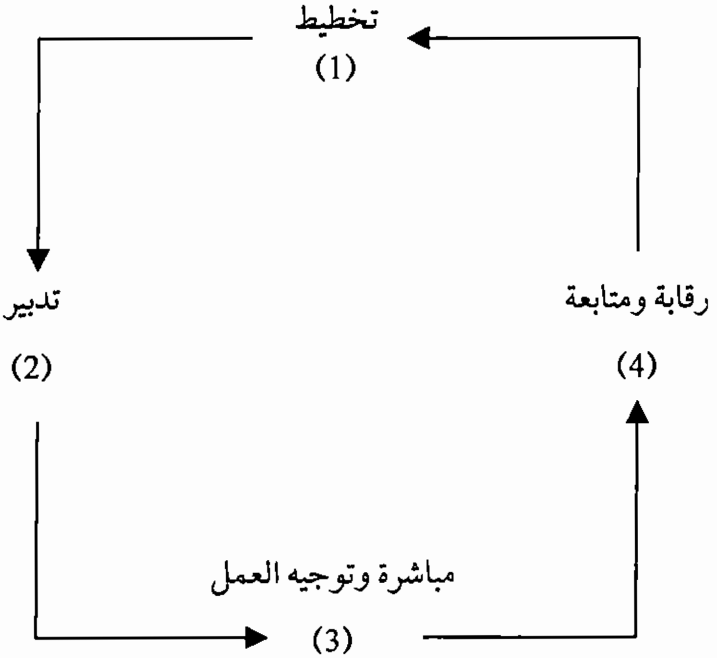

خامساً: النجاح

1- ويكون النجاح مقياساً يُقاس به مدى [واقعية] و [علمية] و [عملية] الخطة التي انتهينا إليها.

2- فإذا تحقق النجاح يجب أن نتجاوزه رأساً إلى دراسة الواقع الموضوعي الجديد وتستمر الحلقة.

3- إن لم يتحقق النجاح لابد من مراجعة:

1 = تحديد الواقع.

أو **2** = التفكير فيه.

أو **3** = الكلام المعلن عنه.

أو **4** = العمل وخطة العمل.

II
تطبيق المنهج على واقعنا.

بتطبيق المنهج على واقعنا خاصة فإنه يكون كما يلي:

أولاً: في أي عصر نعيش؟

- في عصر التقدم التكنولوجي:

(1) التقدم التكنولوجي في تكنولوجيا الحرب:

ويطرح الاختيار بين [السلام أو البقاء أم الحرب أو الفناء]

(2) التقدم التكنولوجي في تكنولوجيا الإنتاج:

ويطرح الاختيار بين [الرخاء للجميع أم استغلال البعض للبعض الآخر]

(3) التقدم التكنولوجي في تكنولوجيا المواصلات (عصر اختصار المسافات):

ويطرح الاختيار بين [التعايش أم التفرقة العنصرية]

(4) التقدم التكنولوجي في تكنولوجيا المعلومات:

ويطرح الاختيار بين [أوسع حوار ومشاركة أم تعال وتدفق إعلامي من جانب واحد]؟!

ثانياً: في أي منطقة نعيش

نعيش في المنطقة التي يتهددها:

1- الحرب والفناء

2- الاستغلال

3- التفرقة العنصرية

4- العلو في الأرض ممن يريدون أن يفرضوا عليها ثقافتهم؟!

ولكن أمامنا فرص:

1- السلام

2- الرخاء

3- التعايش بين القوميات

4- القيام برسالة الحق

ثالثاً: من نحن

نحن نعيش في هذا العصر بين هذه الاختيارات:

1- واقعنا كله آلام

2- وأمامنا كل الآمال

3- ونحاول أن نعرف كيف وصلنا إلى هذا التخلف ونتطلع إلى الخلاص منه.

إذن:

* لابد أن نعرف تاريخنا
* لابد أن نعرف آفاق التقدم
* لابد أن نعرف طريق التقدم

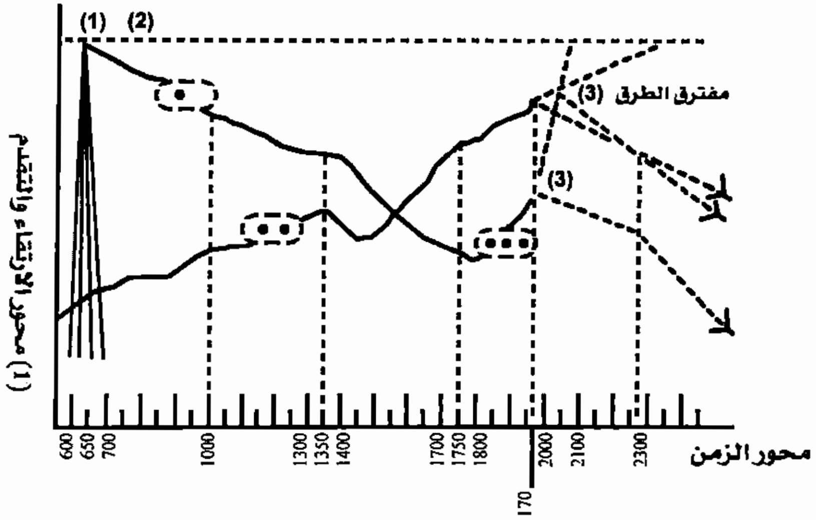

(*) مُنْحَنَى الحضارة العربية الإسلامية الأولي.

(* *) مُنْحَنَى الحضارة المسيحية الأوروبية الغربية.

(* * *) مُنْحَنَى النهضة العربية الحديثة.

(1) **محور الارتقاء والتقدم** والذي **يمثل البعد الأهم والمتجاهل في النظر إلى التاريخ الإنساني** وهو **المحور الذي مثل المرحلة الأولى والأساسية** من مسيرة بني آدم والتي **قادها الأنبياء والرسل.. وخاتمهم محمد رسول الله ﷺ**.

(2) تمثل القمة التي وصل إليها التطبيق الرسولي . . **عند إكمال الدين** . . وإتمام النعمة . . **واختتام النبوة بوفاة رسول الله ﷺ** .

(3) هي لحظة الاختيار (ومفترق الطرق) التي تقف فيها الإنسانية المعاصرة **فهل سترتفع إلى المستوى السامق الذي رسمه القرآن . . كما جاء به رسول الله ﷺ** . . وعلى **أن يكون على مستوى العصر**؟!

[أما الرسم البياني فهو لـ «الحضارة العربية الإسلامية الأولى» و «الحضارة المسيحية الغربية»] .

ملاحظات :

(1) هذه المحاولة الأولى في حقبتنا المعاصرة لتقديم تفسير لـ «تاريخنا الحضاري» إذ إنَّهُ كان **خاضعاً لتفسير يقوم على المركزية الغربية** .

←وقد **استطاع الغرب أن يجعل نفسه مركز التاريخ بأن جعل حركة التاريخ يحكمها بعد** واحد هو **بعد الامتداد الزمني الذي حدد بدايته وجعل امتداده معياراً للتقدم** فكل حقبة تلت ما قبلها هي أكثر تقدماً!! وبالتالي فإن القرن العشرين (أو الواحد والعشرين الآن) هو الأكثر تقدماً في كل التاريخ البشري .

وهم في القمة في هذا القرن ← فهم في قمة التاريخ الحضاري؟؟؟ .

(2) وهذه المحاولة محاولتنا تقول : **إن التاريخ له بعدان أو محوران ، بعد الامتداد الزمني وبتحديد مختلف عما حدده الغرب وبعد أو محور هو محور الارتقاء والتقدم**؟ وحركة التاريخ الحضاري داخل هذين المحورين تحدد في شكل رسم بياني قد لا يعطي صفة الارتقاء والتقدم لكل زمن متأخر منها وقد يكون زمن متقدم له من الفضل - إن لم يزد - عن المتأخرين .

الدورة (أو الاستدارة الكبرى للزمان)

(3) وهذه المحاولة تقول : **إن التاريخ الإنساني وصل إلى قمة الارتقاء والتقدم بكمال التوحيد وتمامه . . فيتخذ من إكمال الدين وإتمام النعمة واختتام النبوة بداية لمرحلة استقلال العقل - مع حفظ المكانة لتلك المرحلة التي قادها الأنبياء والرسل** - بدعوة التوحيد . خير ما قلت أنا والأنبياء من قبلي «لا إله إلا الله»

وكان ختامها على يد محمد ﷺ يوم أن تلا قوله عز وجل: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ سورة المائدة/ الآية 3، ويومها أعلن انتهاء النسيء والتلاعب بالأشهر واستدارة الزمان كيوم أن خلق الله السموات والأرض.

(4) وهذه المحاولة توضح **أن حركة التاريخ الحضاري لأمتنا داخل هذين المحورين قد وصلت إلى القمة بكمال الدين وتمامه واختتام النبوة، وأنَّ ما اعتراها من نقص فيما بعد إنما هو نقص قياساً إلى القمة التي قصرت عنها لا قياساً إلى الإطار التاريخي العام**، وهذا يمكن من نقد تاريخي موضوعي لحركة التاريخ الحضاري لأمتنا وذلك بالمقارنة النسبية لحقب تاريخنا العربي الإسلامي بلحظة الكمال «ك» وما بعد الكمال «ب ك».. ومقارنة هذه الحقب بتاريخ العالم.. التي تحدث وسط الزمان الممتد؟ مع تمكيننا من نقد الذات دون تلذذ بإيذائها!!! ومواجهة ما حدث من نقص لأمور الحكم والمال والاجتماع؟ تمهيداً لتصحيحها.

(5) وهذه المحاولة توضح **أن النقص الذي اعترى استمرارية التجربة الكاملة** – وهو نقص بدأ بعد كمال – **لم يَعْنِ التدهور منذ أول يوم**، بل استمرت مع النقص إلى أن وصلنا إلى نقطة علا فيها معدل النقص على القوة فظهر التدهور.

(6) وهذه المحاولة توضح **الخطأ الذي وقعت فيه محاولات النهضة الحديثة لأمتنا ومازالت واقعة فيه** محاولاتنا المعاصرة إذ لم تنتبه إلى أن **محاولاتنا يجب أن تكون للارتفاع** – وليس العودة.. فالعودة عبر الزمن مستحيلة – **إلى المستوى السامق الذي رسمته لحظة الكمال وليس أي مستوى آخر دونه.. وعلى أن يكون على مستوى عصرنا و«عالمنا في هذا العصر».**

(7) وأنَّ امتنا لقادرة أن تنقذ نفسها وتنقذ الآخرين باختيار الخير لنفسها.. وإلى الإنسانية كلها يوم أن تقدم الاختيار الخير وسط ما تطرحه التكنولوجيا من تساؤلات: **فتكنولوجيا الحرب** صارت تطرح سؤال أحرب أم سلام؟ أفناء أم بقاء؟.. **وتكنولوجيا الزراعة والصناعة** صارت تطرح سؤال أاستمرار لنظام يقوم على الاستغلال وسوء التوزيع أم إقامة نظام عالمي جديد يحقق

الكفاية للجميع والعدالة في التوزيع؟ . . **وتكنولوجيا المواصلات**، وقد صغرت العالم إلى قرية، صارت تطرح سؤال أاستمرار العنصرية والتفرقة أم تعايش وتعارف وتآخ؟ . . **وتكنولوجيا الاتصالات والإعلام** صارت تطرح سؤال أتدفق إعلامي من جانب واحد أم تحاور وتشاور وبحث عن الحق والحقيقة؟ . .

مجموع الاختيارات **هو اختيار ثقافة عدوانية** تؤدي إلى الحروب إذا ما استمر الاستغلال وسوء التوزيع والتجويع والعنصرية. . **أم اختيار ثقافة سلام** يقوم على الكفاية والعدل والتحاور والتشاور.

وإننا لنملك الاختيار الخير والحل النهائي. . ولقد كان رسول الله ﷺ شهيداً علينا لنكون شهداء على الناس.

الملحق

الرسالة الخاتمة ..
احتواء الماضي ..
واستشراف المستقبل ...

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

وبه نستعين

الرسالة الخاتمة.. احتواء الماضي.. واستشراف المستقبل...

إننا نتناول هذا العنوان باعتبار أنه يتطابق مع موضوع **الرؤية التاريخية التي نتبني** والتي ترى **أن إكمال الدين واختتام النبوة (بوفاة محمد صلى الله عليه وسلم) إنما هو الرؤية التاريخية الصحيحة التي تواجه رؤية أخرى للتاريخ** والتي للأسف فرضوها علينا . . .

ولذلك. . فإننا سنعرض هذا الموضوع في **تمهيد** يوضح **الرؤية السائدة للتاريخ**. . وخطورتها علينا . . وعلى الإنسانية كافة . . **ثم** نفرغ لتوضيح **الرؤية التاريخية** الصحيحة . . وكيف أنها **تتسع لاحتواء التاريخ الإنساني كله**. . **وتستشرف** المستقبل للناس كافة . . . . **ثم نختتم بما تقدمه هذه الرؤية من تصحيحات في رؤية التاريخ**. . .

I – رؤية سائدة للتاريخ؟!

إن **رؤية الغرب للتاريخ**، والتي للأسف فرضوها علينا أيضاً؟! . . **هي المسؤولة** عن تزييف النظر الصحيح للتاريخ الإنساني . . ومساهمات الأقوام والثقافات القومية في المسيرة التاريخية الحضارية للإنسانية ... **وهي المسؤولة** عن هذا الغرور الذي يتنكر لعطاءات الثقافات الأخرى . . ويصور لهم غرورهم أنهم نهاية التاريخ ويمثلون آخر إنسان . . بل الإنسان الأخير . . والـ(Super man)؟![1]

---

(1) وتعود فكرة نهاية التاريخ – كما رصدها أحد الباحثين (على أن هناك من يعود بها إلى ما قبل هذا . .) – إلى نحو قرنين من الزمان، فقد «أعلن الفيلسوف الألماني (هيجل) أنَّ التاريخ انتهى عام 1806 م لأنه رأي في دحر نابليون للملكية البروسية في معركة (يينا) انتصاراً لمثل الثورة الفرنسية، وبشيراً بامتداد الدولة التي تجسد مبادئ الحرية والإخاء والمساواة في العالم». =

إن رؤيتهم للتاريخ، والتي للأسف فرضوها علينا أيضاً؟!.. تقول: إن التاريخ له بعد واحد؟! **يلتصق فيه التقدم مع تقدم الزمن**؟!.. فالقرن الواحد والعشرون متقدم على القرن العشرين.. والقرن العشرون متقدم على القرن التاسع عشر.. والقرن التاسع عشر متقدم على القرن الثامن عشر.. وهكذا دواليك...

وإن **رؤيتهم للتاريخ** هذه تجعلهم يزعمون أنهم هم قمة التاريخ.. ونهاية التاريخ؟!

وإن **رؤيتهم للتاريخ هذه هي التي جعلتنا ننظر**، وجعلت أهل الثقافات الأخرى سواهم ينظرون، إلى أنه **لا خيار إلا أن** نكون، ويكون أهل الثقافات الأخرى، **أتباعاً** لهم... **فإذا رفضنا لم تعد لنا**، ولأهل الثقافات الأخرى، من **خيار آخر** سوى **أن نعود إلى تاريخنا؟!.. وننعزل عن التاريخ الإنساني المعاصر والمستقبلي؟!؟!**

= ثم رأي «**كارل ماركس**» - أشهر من روجوا فكرة نهاية التاريخ - أن التاريخ سيصل نهايته بتحقيق اليوتوبيا الشيوعية التي ستحل في النهاية جميع التناقضات السابقة عليها... فيما رأي عالم الاجتماع الألماني «فيبر» أنَّ الأخلاق البروتستانتية هي روح الرأسمالية، وأن الرأسمالية هي نهاية التاريخ... وبعد أن أسقط التاريخ نفسه مادية «ماركس».. بدأ «**فوكوياما**» (...) بإعلان انتصار الغرب الرأسمالي، والوصول إلى نهاية التاريخ... وقد أكد أفكاره في كتابه «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، وكانت غايته ليست إلا تسجيل (اللحظة الأميركية) في تاريخ البشرية، أي: انتصار أميركا بعد سقوط النظم الشيوعية في الاتحاد السوفييتي وشرق أوروبا، باعتبار تلك اللحظة نهاية التاريخ... **وإذا بالرئيس «بوش الأب»** بعد انتصار أميركا في حرب الخليج، يعلن عن إقامة (نظام عالمي جديد)، تجسيداً لفكرة نهاية التاريخ، بنشر القيم الأميركية على امتداد العالم، أي بمعنى آخر: «أمركة» العالم... **في غمرة هذا السياق يأتي كتاب «صموئيل هانتجتون» صدام الحضارات: إعادة تشكيل النظام العالمي** «الصادر العام 1996م» ليتنبأ بأن نهاية التاريخ هي نهاية صراع بين الحضارات، وبمعنى أدق: صراع بين الحضارة المسيحية وبقية العالم... تقوم نظرية هذا الكتاب على فكرتين هما: «حتمية النزاعات بين الدول، وضرورة أن تقوم الولايات المتحدة بترويج قيمها الثقافية الخاصة» **وعلى خط «هانتجتون، وفوكوياما» استكمل المستشرق «برنارد لويس» السير في طريق التأسيس النظري للصراع بين الحضارات / الأديان، والإعلام الإيديولوجي لانتصار الغرب المسيحي**، ففي كتابه «ثقافات في صراع» يؤرخ للصراع بين الغرب والشرق، وبشكل أكثر تحديداً بين الغرب الأوروبي الأميركي (المسيحي) والشرق (الإسلامي) فيختزل الصراع بين الحضارات إلى صراع بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية... وهو بذلك فاق غيره في تطرفه وعدوانيته، وهذا ما يعرف عنه في مجمل كتاباته وأبحاثه. (هكذا فسر الغرب - من خلال / نظرته الاستعلائية العدوانية - نهاية التاريخ وطبيعة «العلاقة» بين الحضارات والشعوب على أنها علاقة منتصر ومنهزم، أو هكذا يجب أن تؤول حتمية النزاعات وتلك العلاقات إلى نهاية التاريخ، على أنه بداية انتصار الغرب على خصومه في العالم وفي مقدمتهم أصحاب الديانة الإسلامية.

التفسير الغربي للحضارة
أحادية الاتجاه

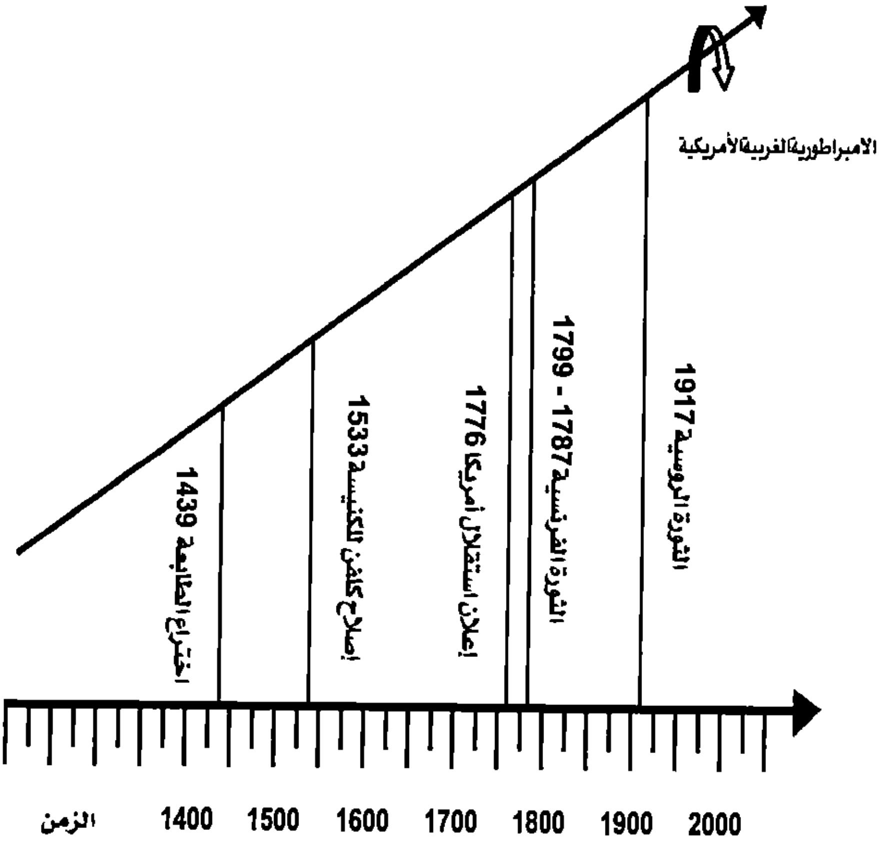

II – الرؤية التاريخية الصحيحة

(بإكمال الدين واختتام النبوة بوفاة محمد صلى الله عليه وسلم) . . **احتواء الماضي . . واستشراف المستقبل . . .**

الرؤية التاريخية التي تتبنى ترى أن نشأة التاريخ كانت منذ أن اكتسب آدم المعرفة وعلم الأسماء كلها . . **فكما أن أساس المعرفة الإنسانية، ونقطة البدء اليقينية فيها، هي الوحي**[1] الذي كون الإطار المعرفي المبدئي . . المتوافق مع

---

(1) ويعتقد كاتب هذه السطور برؤية ترى أن للمعرفة النماذج التالية :

1/ **الأغوذج الموحى للمعرفة** : على الرغم من انه جزء صغير من المعرفة البشرية، ولكنه هو الجزء **الأساسي أو التأسيسي أو الرئيسي والأهم أو الجوهري والحيوي .**

– إن هذا «الأنموذج الموحى للمعرفة» أو **«الأغوذج المعرفي الموحى» هو النواة الدائمة** .. والتي تتبعها جميع جهود المعرفة البشرية . . **منها انطلقت، وعلى هديها سارت . . ونحوها تتوجه . . .**

2/ **الأغوذج المعرفي – العلمي «البشري»** . . وهو يتميز بتعرضه لإعادة النظر، بصورة مستمرة، مواكباً التطورات على كفايات الإنسان من عصر إلى عصر، والأنموذج العلمي يساعد الإنسان على فهم أعمق للأنموذج المعرفي الموحى، **والفهم الأعمق للأغوذج المعرفي الموحى يساعد على توسيع آفاق الأغوذج المعرفي العلمي .**

أ/ **وللأسف الشديد ،إن الأغوذج المعرفي العلمي على يد الغرب، قد تنكب هذا الطريق** وصار «الأنموذج المعرفي العلمي الغربي» في معظمه خاضعاً لنظرية معرفية تنفي وجود الأنموذج المعرفي الموحى نفسه . . وهذا هو السبب في «التمرد» و«الصراع» و . . . الخ .

ويعتقد رجل العلم الغربي هذا، بصفة خاصة، أنَّ الدين لا يمكن أن يوجه أو يدير أو يقود الأنموذج العلمي الغربي . . والرجل العلمي الغربي لا يملك إلا الصيغ المنهجية والرياضية القائمة على المنطق الكمي، فالأنموذج العلمي الغربي محدد بمدى المنطق البشري، وهو محدد بالمنطق الكمي . . ! .

ب/ **ولكن بحمد الله إن قوى العقل البشري، بل ومسيرة التاريخ الإنساني، تقود إلى اتجاه التوحيد أيضاً .** إن آخر اجتهاد وجهود العلماء في الفيزياء هي دراسات **القوة الواحدة التي تمسك كل أشكال المادة معاً والتي تقول : إنّه ما يمسكهن إلا القوي المتين Strong Force .**

3/ **والاتجاه التوحيدي** هو ما ورثته البشرية عن الأنبياء، والذي تكامل وتعزز في **«الأغوذج التوحيدي الأسمى»** .

أ/ **والأغوذج التوحيدي الأسمى «الإسلامي»** مرتبط بالأنموذج الموحى . . متحداً متناغماً . . مع جميع أقسام المعرفة والسلوك البشرية .

وإن وجود الأنموذج الموحى على رأس الأنموذج الأسمى . . يؤدي إلى سلسلة من العمليات التوحيدية . . بينما رفض الأنموذج الموحى، أو عدم القبول بضرورته، يؤدي إلى سلسلة من العمليات الاضطرارية !!! .
=

الفطرة . . والمؤكدة بتراكم التجارب البشرية التي تعرف المعروف فتؤكده بإنكار المنكر . . وإقرار العرف . . ويأتي **الدين القيم مؤسساً على الفطرة** التي فطر الله الناس عليها . . وآمراً بالعرف . . .

فإن تاريخ الوحي . . وتاريخ النبوات والرسالات . . من آدم . . ومروراً بأبي الأنبياء : إبراهيم . . وموسى وعيسى واكتمال كل ذلك (ومن هنا أهمية التاريخ بإكمال الدين واختتام النبوات) **في صورته النهائية عند حجة الوداع (632 ش من ميلاد المسيح عليه السلام)** التي قال فيها رسول الله صلي الله عليه وسلم : إنَّ الزمان قد استدار اليوم كهيئته يوم أن خلق الله السموات والأرض . . .

- **يكون كل ذلك** إعلاناً على أنَّ المعرفة الإنسانية ، والمسيرة التاريخية الإنسانية ، قد استدارت وأخذت منحنى جديدة . . بعد أن تأكدت نقطة البدء اليقينية بالوحي . . ورسمت الخطوط العريضة وتأكدت . . وبعد أن تمت عملية الصياغة المكتملة لـ «الوصية الخاتمة» والنداء الأخير للبشرية جمعاء - عبر حواجز الزمان والمكان - فقال عز وجل : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ . . . سورة المائدة/ الآية 3 .

والنبوة والرسالات تقدم في التاريخ ، ولقد كان للأنبياء وللرسل دور ورسالة في تقدم الوعي الإنساني ، وكان اكتمال الرسالة إعلاناً لاستقلال العقل والإرادة . . واكتمال الوعي الإنساني بعد أن حقق الوعي غايته في تطور البشرية . . .

= **وقد قام الاتجاه الصراعي بصراعات وتفريق** داخل أوربا . . وصراعات وتفريق في العالم كله . . بل صراع وتشويه في الطبيعة نفسها !!!

- فهو لا يعرف إلا منطق الصراع والقوى والغطرسة . . والحروب والدمار . .

ولكن بحمد الله إن قوى العقل البشري . بل ومسيرة التاريخ الإنساني ، تقود إلى اتجاه توحيدي أسمى .

4/ والأنموذج الإسلامي الأسمى يعززه الأنموذج الموحى . . هادياً للمعرفة والسلوك البشريين هو نظام أسمى بكثير لإبداع نظام متكامل للمعرفة . .

ولقد كان الإسلام هو الأنموذج الأسمى ، لأنه يتكامل من خلال التنامي الشمولي المتناسق ، وهو نظام يكتفي بأن يضع المنطلقات ، ويوضح المسارات العريضة ، والوجهة . . ثم هو مفتوح . . .

فهو مرتبط بالأنموذج الموحى . . متحداً متناغماً مع جميع أقسام المعرفة والسلوك البشريين . . .

← ومن هنا نستطيع أن نقول إنه **تم رسم محور الارتقاء والتقدم الذي سجلته الإنسانية من خلال مسيرتها .. وفقاً للفطرة. . وما تأكدت به من إنكار للمنكر عند أي انحراف، وأمر بالمعروف. . حتى صار «عرفها» الذي به تأتمر**. . . ← وهي مسيرة مشرفة قادها الأنبياء والرسل أجمعون عليهم أفضل الصلاة والسلام. . .

والنبوة والرسالات تقدم في التاريخ، ولقد كان للأنبياء وللرسل دور ورسالة في تقدم الوعي الإنساني. . من خلال تأكيد ما هو أساس في تهيئة الإنسان - والناس كافة - لما يصلحون له من «دور» في أداء «رسالتهم» التي **أؤتمنوا** عليها **خلفاء** في الأرض لتعميرها. . وقد **سخرت** لهم. . . الخ.

ومن هنا كانت كلمات: **العبودية** لله بمعنى تهيئة الإنسان لما يصلح له. . **والاستخلاف** ائتماناً له على العمران. . **والتسخير**. . . الخ ← كل هذه الكلمات هي ما أكد عليه كل الأنبياء والرسل بتأكيدهم على «لا إله إلا الله». . **بما تعني** من ألا يكون الفرد عبداً لغير الله. . وألا يستعبد غيره. . . **وبما تعني** أن يكون الإنسان خليفةً في الأرض. . ويكون إخوانه من الناس جميعاً مستخلفين. . . **وبما تعني** أن يكون كل شيء مسخراً للإنسان. . ولإخوانه من بنى البشر جميعاً. . .

ولئن تولى كل نبي رسول - بعد تأكيده ما هو أساس - معالجة لمنكر ظهر في قومه نتيجة ضلال وخطأ. . فجاءهم بالهدي والتصحيح. . . **وحتى إذا استوفت الأقوام ضلالها وأخطاءها. واستوفت النبوات والرسالات التصحيحات**. . .

← فإن الوصية الخاتمة قد جاءتهم **مصدقة ومهيمنة**. . فكان القرآن الكريم. . الفرقان الذي جاء بالحق المبين. . الدين القيم الذي يقوم بكل جوانب الحياة. . والذي جاء آمراً بالعرف. . متوافقاً مع الفطرة. . .

← وإن الدين عند الله الإسلام. . .

ولقد تأسس محور الارتقاء والتقدم واستدار الزمان كهيئته يوم أن خلق الله السموات والأرض. . وبعد هذا التاريخ المشرف الذي قاده الأنبياء

والرسل . . **وما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم لقومه وللعالمين** . . **مفتتحاً عصر القومية بآفاق إنسانية وعالمية** . . فكانت **دعوته لقومه وللعالمين وللناس كافة** . . .

وإن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، **وما يمكن أن يجعل منا لكلٍّ شرعة ومنهاجاً**، إنما هو آخر مرحلة من الوحي في التاريخ . . وهو الوحي مكتملاً في صورته النهائية، ويمكن أخذه كأصل للتشريعات . . .

ومن هنا صح ذلك القول لأحد المستشرقين الأمريكيين «إن القرآن قد بدل مجرى التاريخ الإنساني» . . .

وقد ارتفع رسول الله صلى الله عليه وسلم بقومه، وب«السابقين» من الأقوام الأخرى . . والتي كانت على ساحة الأحداث في عصره، إلى **المستوى السامق الذي رسم للارتقاء والتقدم** . . **وحملهم**، بحكم جعلهم أمة وسطاً، **أن يكونوا شهداء** - بالحق - على الإنسانية . . وسوف يسألون . . .

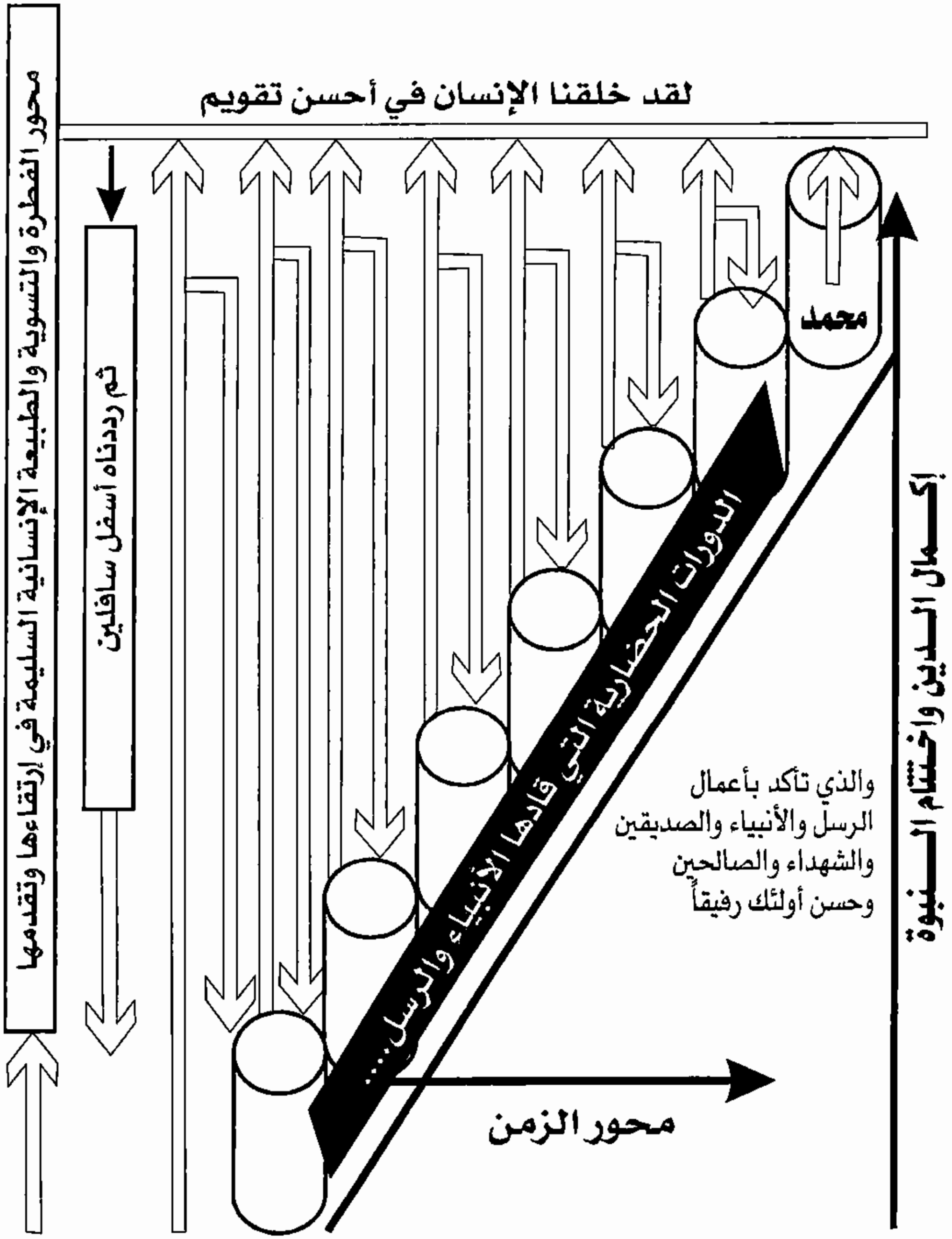

لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم
محور الفطرة والتسوية والطبيعة الإنسانية السليمة في إرتقاءها وتقدمها
ثم رددناه أسفل سافلين
محمد
الدورات الحضارية التي قادها الأنبياء والرسل...
إكمال الدين واختتام النبوة
والذي تأكد بأعمال
الرسل والأنبياء والصديقين
والشهداء والصالحين
وحسن أولئك رفيقاً
محور الزمن

بسم الله الرحمن الرحيم

لا إله إلا الله

فلا تكن عبداً لأحدٍ غير الله	1	ولا تستعبد إخوتك الآخرين من عباد الله
وهذا معنى أنك خليفة الله في الأرض	2	وهذا معنى أن عباد الله جميعاً مستخلفون
والكون كله مسخر لك	3	وهم ليسوا مسخرين لك بل إنكم في تراحم وتضامن وتعارف
ومن هنا عليك بالعلم والعمل وبفاعلية	4	ومن هنا عليك العطاء.... معنوياً ومادياً
وهذا ما يحقق البناء والتعمير	5	وهذا ما يحقق بناء شبكة العلاقات

وهذا هو الإسلام كما وضّحه رسول الله ﷺ

وإذا كان المنكرون لله، و من قالوا بـ «العَلمانية» (بفتح العين). . أو الاهتمام بهذا العالم الآن، إنما **كان دافعهم الباعث هو**:

- تحرير الإنسان من الخوف، والخضوع، للطبيعة.
- تحرير الإنسان من الشعور بعدم القداسة وهو يعالج مشكلات حياته.
- تحرير الإنسان من سيطرة طبقات ادعت لنفسها الامتيازات؟!

← فإن الإسلام برفضه للوثنيات وعبادة غير الله. . وإعلانه تسخير كل ما في الكون للإنسان إنما يحرر الإنسان من الخضوع للطبيعة.

← والإسلام يستنكر تحريم زينة الدنيا، ويؤكد حل ما في الدنيا من طيبات.

← **وفي الإسلام لا إزدواجية. . بل مساواة**، فليس بينهم معصوم (سوى رسول الله صلى الله عليه وسلم في تبليغ ما أمر بتبليغه إلى الناس).

ولا حكومة إلهية. . بل «حكومة كل الناس» تخضع للخطأ والصواب. . .

والشورى هي قاعدة «الجماعة». . وللجماعة أن تختار من صفوفها من تُولي إليهم الأمر (فهم أولوا أمر منا - وليسوا أولياء. .) فما بالك «بوليٍّ» أمر واحد. . ظل لله في الأرض؟!.

«**وإذا كانت دعوة التوحيد في الألوهية في الإسلام تستهدف المساواة**» - فيما عدا الله - بين الناس في الاعتبار الإنساني، وفي البقاء في المستوى الإنساني، وفي المشاركة في خصائص الإنسانية من الصواب والخطأ. . فإنه ليس هناك في نظر الإسلام مكان في جماعة المؤمنين، أو في المجتمع الإسلامي، لنزاع حول السلطة. . على أساس أن بعض المجموعات في المجتمع يتميز عن المجموعات الأخرى. . على أساس غير إنساني؛ فهذه مجموعة لها قداسة، ولقولها عصمة. . وهذه مجموعة أو مجموعات أخرى ليست لها قداسة، وليس لأقوالها عصمة. . . ؟!

← فإن أهل «**مدينة رسول الله** صلى الله عليه وسلم» كانوا جميعاً معاً «**أمة**» **من دون الناس. . ولكل دينه**. . وهو دين واحد - وان تعددت الرسالات تعدد الرسل بتعدد أقوامهم. . وبهداهم **اقتدى** رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان **أسوة** ورحمة للعالمين. . .

وأمته ستكون «شرعة» للناس . . وشاهدة بالحق . . .

[و«الزوجية» ««الزوج» هو الفرد الذي له قرين يكتمل به ، والرجل والمرأة كل منهما زوج ، وهما معا زوجان» هي المكـون الأول لـ «الوحـدة» الإنسـانية . . ومن الزوجيـة يكـون الانتشـار فـي شـعاب الأرض شـعوباً وقبـائل لتعـارفوا . . والأكرم ، أي الأكثر كرامة ، هو مـن يـتزكى ضمـن «الوقايـات» التـي تقيـه فـي مسيرته نحو الفـلاح . . . (والفـلاح هـو البقـاء لا الفنـاء . . والغنـى لا الفقـر . . والعز لا الذل . . والعلم لا الجهل . . .)]

ولقد كان التطبيق الرسولي لهذا الوحي على أحوال الناس واحتياجاتهم تبياناً أن كل آية هي حل ومعالجة وموقف ، وأن ما تجمع من الآيات على مدى ثلاثة وعشرين عاماً قد قدم حلولاً ومعالجات ومواقف .

وإن هذا الوحي المنادى به من الواقع قد جاء موضوعاً للأفهام . . وفهم القرآن ليس إلا نظرية في التفسير . . .

← ومن هنا إن أردنا أن نضع الوحي من جديد باعتباره مصدراً للمعرفة وموضوعاً لها . . فلابد من نظرية في التفسير ، ومن هنا فنحن نحتاج إلى نظرية في التفسير لا فلسفة ؟ !

إن ما شـرع لنـا مـن الديـن ليـس علمـاً متخصصـاً . . إنـه «وجهـة نظـر - منطلق» أو «زاوية رؤيا - إطار» أو «إطار مرجعي» ← تعينـك ، أو يعينـك ، علـى رؤية الأشياء من خلالها . . من هـذا المنطلـق . . مـن هـذا الإطـار يمكـن أن تـرى العلوم والآداب والصراعات والاتجاهات . . . كلها ، وتراهـا بشـكل يختلـف عمـا يراه شخص ينطلق من وجهة نظر ، من أيديولوجيا ، أخرى .

إن ما شرع لنا من الدين موقف ثـوري . . إنـه أيديولوجيـا صالحـة لتـهدى كفاح البشر في عصرنا أيضاً . . وأيديولوجيا تمكن البشر مـن النظـر إلـى الأمـور بشكل متوازن . . .

ومن هنا يجب ألا ننشـغل ، ومـا ينبغـي لنـا أن ننشغل ، بغـير هـذه المهمـة . . مهمة إحياء نظرة الإسلام للعالم . . للمسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ونحن نريد للإسلام أن يخرج إنساناً جديداً. . ونريد من الإسلام أن يخلق منا أو يجعل منا إنساناً يستطيع الوقوف على قدميه فيكون منه شرعة للآخرين ومنهاجاً؟!

إن مهمتنا هي أن نحول القرآن من «وقف على أرواح الموتى». . إلى موقف في حياة الناس. . وأن نفهمه بالبساطة والوضوح التي فهمه بها أبو ذر الغفاري، ذلك الأعرابي الأمي!.

إن التخصص إن كان يعجب البعض. . حتى إنهم يريدون مد ظلاله على الشريعة؟! يخلق النخبة ويعمق التمايز ويقود إلى تضخم سرطاني في البيروقراطية؟!

أما ما شرع لنا من الدين فهو ما نزل في القرآن - مصدقاً ومهيمناً - وهو ميسر لكل مُذّكر؟.

وإن ما شرع لنا، وهو ما وصى به ربنا نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى. . وكان هو كلمة السماء إلى الأرض. . . واختتمت بنبينا عليه السلام.

← إنه إن صح التعبير. . (ولله المثل الأعلى وليس له شبيه ولا نظير) وجهة النظر الإلهية. . إنه الإطار الإلهي. . إنه النظارات التي إذا وضعها الإنسان ونظر من خلالها ظهر له كل شيء كما هو في الحقيقة، وذلك خلافاً لأي وجهة نظر أخرى التي قد تضخم أموراً وتصغر أخرى. . وتلون ثالثة ورابعة. . الخ.

إنه من **خلال المنظار الثقافي تكون رؤيانا واضحة وتضع الأمور في حجمها الطبيعي** أو **لا تكون**، فإذا كان المنظار الثقافي يعطى المنظور الصحيح كانت كل أفكارنا وأقوالنا وأعمالنا صحيحة. . وإلا فلا؟!

إن الذهنية الإنسانية إما أن تكون طوع الإلهي أو **لا تكون**. . وإنها لترى الأمور والناس وفق نظر إلهي أو شخصي. . وعلى اختلاف في هذا النظر الشخصي. . .

وبهذه الرؤية **نرى في سنة رسول الله** - في إطار سيرته عليه السلام - تجربة بشرية نموذجية قدمت تحققاً لهذا الوحي. . . فلا يتحول الوحي من الفكرة إلى الشخص. . ومن تحقق الرسالة في الواقع التاريخي إلى التجسيد الشخصي؟

أما الإجماع – أعني إجماع الأمة – فقد كان كفيلاً أن يقدم تحققاً لـهذا الوحـي في التاريخ . . إذا التزم «الشرعة» . . أما المنهـاج فمفتـوح أمامـهم «ومـا رآه المسـلمون حسناً فهو عند الله حسن»؟ . . . فمن الله إلـى شـعور النبـي . . إلـى شـعور «النبـي – الرسول» إلى الأمة . . عوداً إلى شعور الفرد من جديد! . فلسـفة للتـاريخ تقـوم علـى دور الأبطال[1] ، ولكنها تهدف إلى تحويل الجموع إلـى أبطـال فـي التـاريخ . . والأمـم إلى قادة التاريخ . . .

كان يمكن من خلال الأدلة الأربعة وإعادة ترتيبها . . أن نبدأ بالواقع وحياة الناس . . وبالأمة والجماعة كذاتية أكـبر – علـى مـا يقـول إقبـال – ثـم الاسترشـاد بالسـنن وسـير الأبطـال . . ثـم بـالوصول فـي نهايـة الأمـر إلـى الشـامل فـي التاريخ . . .

– وبدلاً من الانتقال من النص إلى الواقع ، يتم الذهاب من الواقع إلـى النـص! ويمكننا إدراك أهمية الزمان وأصل الوحي . . وقانون التقدم والارتقاء؟!

والوحي نفسه ليس معطى من الله في لا زمان ولا مكـان ، بـل هـو تـنزيل إلى البشر . . وتوجيه للواقعات ومعالجـات لمشـكلات ، فـالواقع هـو الـذي كـان ينـادي بـالحل حـين تسـتعصي المشـكلات عـن المعالجـات البشـرية بنسـبيتها؟!

و«الكتاب» هو في الحقيقة مجموعة من المواقف التـي طـرأت علـى الواقـع الإسـلامي الأول والتي استدعت حلولاً – **وكل موقف يمثل نمطاً**[2] مثاليـاً **يمكـن أن يتكـرر فـي كـل**

---

(1) إن استعمال مفردة «البطل» و «الأبطال» من الكلمات التي لا تفارق ، ولكنها لا توافق ، فنفضل «العظيـم» و «العبقري» .

(2) القرآن لم يقدم تاريخاً تقليدياً تتعاقب فيه الأحداث تعاقباً زمنياً . . وإنما قدم **أنماطاً** . . موضوعات وقضايا . . .
وإن هذا قد زودنا برؤية «بانورامية» متداخلة مركبة . . وجعلنا نعايش التاريخ كتجربة . . . فوحدة الأحـداث التي تتجاوز التعاقب . . وتتجاور داخل «البانوراما» الواحدة ويرتبط بعضها ببعض . . بغض النظر عن الحقبة التاريخية . . إن كل هذا يعطيك الإحساس بالنسق . . وإمكان امتداده . . .
والنسق التاريخي – في هذه الرؤية – لا يتكون من بناء تحتي (أو أدوات إنتاج) أو . . وإنما هو «كـل» إنسـاني و . . . . .
وإنه ليجعل العنصر الإنساني والناس في قلب الأحداث ، وإن طرد العنصر الإنساني «الناس» من عـالم الزمـان والمكـان – والـذي صـاحب ظـهور الغـرب . . . – لـهو أسـاس كـل كارثـة . . . (القيـاس الميكـانيكي للزمان . . .) . . . وأكاد أقول وظهور «الإنسان الميكانيكي»؟!

زمان ومكان، فإذا ما حدث أن تكررت الواقعة استدعينا الحل نفسه. وهذه خاصية الوحي في الإسلام وتعرف في علوم القرآن باسم: «التنجيم» وفي علوم التفسير باسم «أسباب النزول».. ولقد نزل القرآن على مدى ثلاثة وعشرين عاماً، وقد سمى الأصوليون هذه الأنماط المثالية «المناط».. وهى مواقف إنسانية حية زاخرة بالتجارب النفسية الفردية والمجتمعية...

وفي هذه النظرة **تبدو السنة - وفي إطار السيرة - مجموعة من المواقف التطبيقية** التي يتحدد فيها سلوك الإنسان **كصيرورة لأنماط مثالية** ونموذج لتجارب بشرية يمكن الاحتذاء بها والاقتداء...

السنة تعنى أن الوحي لا يصير دولة إلا بتحقق أول له في مجتمع بعينه، وكان يمكن **للتاريخ أن يظهر من خلال الإجماع أو تفاعلاته** ليس لعصر بعينه ولا لجماعة بعينها ← **وإن عدم التزام كل عصر بإجماع العصر الذي سبقه ليعطي** دفعة جديدة للتاريخ. وإن **احترام المخالفة في الإجماع**، حتى ولو بصوت واحد، ليشير إلى حيوية الأمة واحترامها اجتهادات الجميع وقبولها للخلاف في الرأي.. والحرص على رأى الأقلية.

أما الاجتهاد فهو مبدأ الحركة.. واحترام الذات؟!.. كما أن **الشورى** هي تأكيد لمبدأ الحركة واحترام جميع الذوات في الجماعة.. وما «**الإجماع**» إلا تجارب الأجيال وتراكمها.. من خلال **حركة الجماهير في شكل عمل جماعي** وممارسة تاريخية.

والعقل الإنساني ليس مجرد حركة - بل هو بناء متكامل - ويبدو **مسبباً مشروطاً متخطياً للموانع.. وقد يتحقق على نحو مثالي نموذجي، وهو العزيمة**، أو **على نحو واقعي، وهي الرخصة. ويتقيم في النهاية من حيث الصحة والبطلان..** إضافة إلى أنه **بالأصل إما أن يكون تعبيراً عن التزام فرض واجب، وإما أن يكون** - في حالة الإحجام عن الإتيان - **تعبيراً عن التزام بالامتناع تجنباً** أو **امتناعاً عن الاقتراب** أو **تحريماً** - والفعل **الواجب الفرضي أو عدم الفعل يمثلان قطبين: أحدهما موجب، والآخر سالب**.. وقد يكون الفعل **أقل درجة من الالتزام من**

حيث الجموع أو يكون التزاماً متعدد الجوانب يوزع المسؤوليات بين مجموعة يجب أن تتقدم ومجموعة عليها أن تقدم من هو أهل، فهو الفعل الممكن للبعض.. ويأثم الجميع إن لم يقوموا به؟!

ثم هناك الفعل المرغوب كما هناك الفعل الذي يتحدد بالطبيعة.. وبالبراءة الأصلية التي تحتوي على شرعيتها - فهو مباح؟!

والحقيقة أن الوحي هو عندنا آخر مرحلة من تطور الوحي في التاريخ «ابتداءً من آدم وانتهاءً بمحمد عليه الصلاة والسلام» وبذلك يكون الوحي لدينا مكتملاً في صورته النهائية، وهو أصل «وإطار مرجعي»، كما أنه قد توافرت له كل إمكانات الحفظ والتوثيق، كما أنه ليس وحياً معطى ولكنه وحي منادى به.. اقتضته أحوال الناس واحتياجاتهم، وكل آية هي حل أو معالجة لموقف.. ومن مجموع الآيات التي تعالج المواقف تجمع الكتاب - ثم إن الشريعة موضوعة للإفهام، وفهم القرآن ليس إلا نظرية في التفسير..

وخلاصة القول..

(1) أنَّ رؤيتنا للتاريخ ترى أنه يوجد للتاريخ بعدان: أحدهما يعتبر بمثابة المعيار أو Para-Metres[1] أو المعلمات التي تحدد خط الارتقاء على المستوى الإنساني المطلوب أو المستوى الحضاري، والثاني هو بعد الزمن الذي يحدد مسار تفاعلات العلاقات على المستوى الواقعي..

(2) ومعيارنا أو إطارنا المرجعي (Frame of Reference) هو ما شرع من الدين مما وصى به نوحاً.. ومروراً بأبي الأنبياء: إبراهيم.. وموسى وعيسى.. وانتهاء

---

(1) لقد فضلنا تعبير الـ(Para-Metres) لأنه يدل على وعي بالمعيار الذي نستخدم.. خلافاً لمصطلح الـ(Para-Digms) الذي يدل على معتقدات مسلم بها، ولا نكاد نعي بها، ونستخدمها لفحص الواقع وتصنيفه وتنظيمه..

ويتمثل جانب كبير من تدريبنا الأكاديمي في التأثر بنظرة معينة للعالم وتشربها.. ويشمل النموذج القياسي الـ(Para-Digms) عددا من المسلمات حول نظام العالم.. وقيماً غير ممحصة! حول ما يجب أن يكون عليه نظام العالم.

وقطعاً ليس أحد منا يستخدم نموذجاً قياسياً بصورة نمطية مثلى!.. ولكن العديد منا يتقاربون بمقدار مقاربتهم نموذجاً قياسياً معيناً!!!.

بمحمد عليه وعلى أخويه: موسى وعيسى. . وعلى سائر الأنبياء والرسل. . افضل الصلاة والسلام. . . **وقد أكمل الله الدين، وأتم النعمة، باختتام النبوة . . . بالرسالة الخاتمة** التي بلَّغها محمد عليه الصلاة والسلام.

(3) وإن إعلان انتهاء نظام النبوة والرسالة هو الإيذان بأنَّ الإنسانية قد بلغت سن الرشد. . مرحلة تحمل الأعباء!

. . **فيوم أن أكمل ربنا الدين باختتام الرسالة التي بلغها** محمد صلى الله عليه وسلم **كانت البشرية قد امتحنت كل طاقاتها وصهر معدنها. . بدءاً بالخطيئة الأولى والتوبة منها. . ومروراً بمعركة هابيل وقابيل!** وتجربة كل جيل من بعدهم أو كل قرن أو قوم. . وما عرفوا من أمر ما سبقهم إليه جيل أو قرن أو قوم من قبل!. . تماماً كما يحدث مع ابنك الصغير، يكون جنيناً. . ويمر في خلقه بأطوار. . ويأتي عليه حين من الدهر لا يكون شيئاً مذكوراً، ثم يكون طفلاً. . . حتى يتعلم الأسماء كلها!. . . ويبدأ بعد ذلك في دخول مرحلة التعقل والتفكر والجدل ومسؤولية الاختيار، ويواجه التجربة. . . ويخوض المعركة!. . . وحتى إذا ما اشتد عوده وبلغ رشده. تكون النصيحة الخاتمة!. . وعليه أن يشق طريقه!

(4). . وكان محمد هو كلمة السماء الخاتمة إلى الإنسانية الراشدة. . وكان العقل بعد ذلك، وبفضل ذلك، قد صار حراً مختاراً. . يتوجه بهدي القرآن. . ويتأسى بالتطبيق الرسولي!... ويعمل عقله (والعقل يعرف بفعاله!) لمواجهة تفاعلات الواقعات عبر مسيرة الإنسان في كدحه نحو ربه. . فملاقيه!!!

. . . وقد يكون من المناسب أن نذكر هنا أن رسول الله قد أعلن في خطبته في حجة الوداع. . . يوم أن أنزل قوله عز وجل: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ أعلن رسول الله أنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم أن خلق الله السموات والأرض!!!

وهذا الإعلان **على الرغم من إشارته المجازية إلى بدء مسار جديد للإنسانية. . . فهو يعني حقاً وصدقاً أن الأيام والأشهر قد عادت في وقت حجة الوداع. . فصارت كما كانت أصلاً - وكما أرادها الله - قبل «النسيء»** والتلاعب

الإسرائيلي الجاهلي! (فأنتم تعرفون أنه في الجاهلية - وتعلماً من بني إسرائيل!- كانوا ينسئون الأشهر).

. . . بمعنى أن العدد الإجمالي للأيام والشهور المنسأة قد بلغ في وقت حجة الوداع عدداً كاملاً من فترات ... كل فترة منها اثني عشر شهراً!.

وهكذا **كان محرم الحرام - في ما عرف بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم - من العام الحادي عشر للهجرة. . . هو محرم كما كان عند خلق الله السموات والأرض. . وهكذا كان كل محرم منذ ذلك الوقت هو محرم الحرام كما كان عند خلق السموات والأرض**، إذ إن الناس جميعاً - بعد ذلك - يعلمون أن سير الأشهر القمرية والإسلامية لم يقطعه نسيءٌ إطلاقاً. . منذ السنة العاشرة للهجرة حتى وقتنا الحاضر.

وعليه فمحرم الحرام للعام الخامس والعشرين بعد الأربعمائة والألف من الهجرة. . هو محرم الحرام الذي مر عليه الآن 1414 ق بين عام وسنة!!! وهو الجدير بأن نؤرخ به. . لصحته في عدة الأشهر عند الله يوم أن خلق السموات والأرض ... ولكونه:

(5) يعلن إكمال الدين وإتمام النعمة. . . واستدارة في الزمان يتولى مسؤوليتها العرب ومن حولهم من قوميات العام الإسلامي - وخاصة (1) الأفارقة و(2) فارس أو إيران (3) الأتراك. . وقد قال رسول الله:

«إن بلالاً سابق الحبش وسلمان سابق الفرس وصهيباً سابق الروم!!!» ...

ومازالت دول الجوار للعرب هي 1) أثيوبيا، وامتدادات السودان الشرقي والأوسط الغربي!و(2) إيران ... وما وراءها و(3) تركيا. . . وما وراءها. . .

على كل، فإنه ذكر لرسول الله. . ولقومه (العرب). . **وسوف نسأل!**

ولقد كان رسول الله شهيداً علينا. وعلينا أن نكون شهداء!. . وأول شروط الشاهد أن يكون حاضراً فهل نحن حاضرون؟! (هذا سؤال نعلقه لنجيب عليه بضرورة حضورنا في عالمنا اليوم).

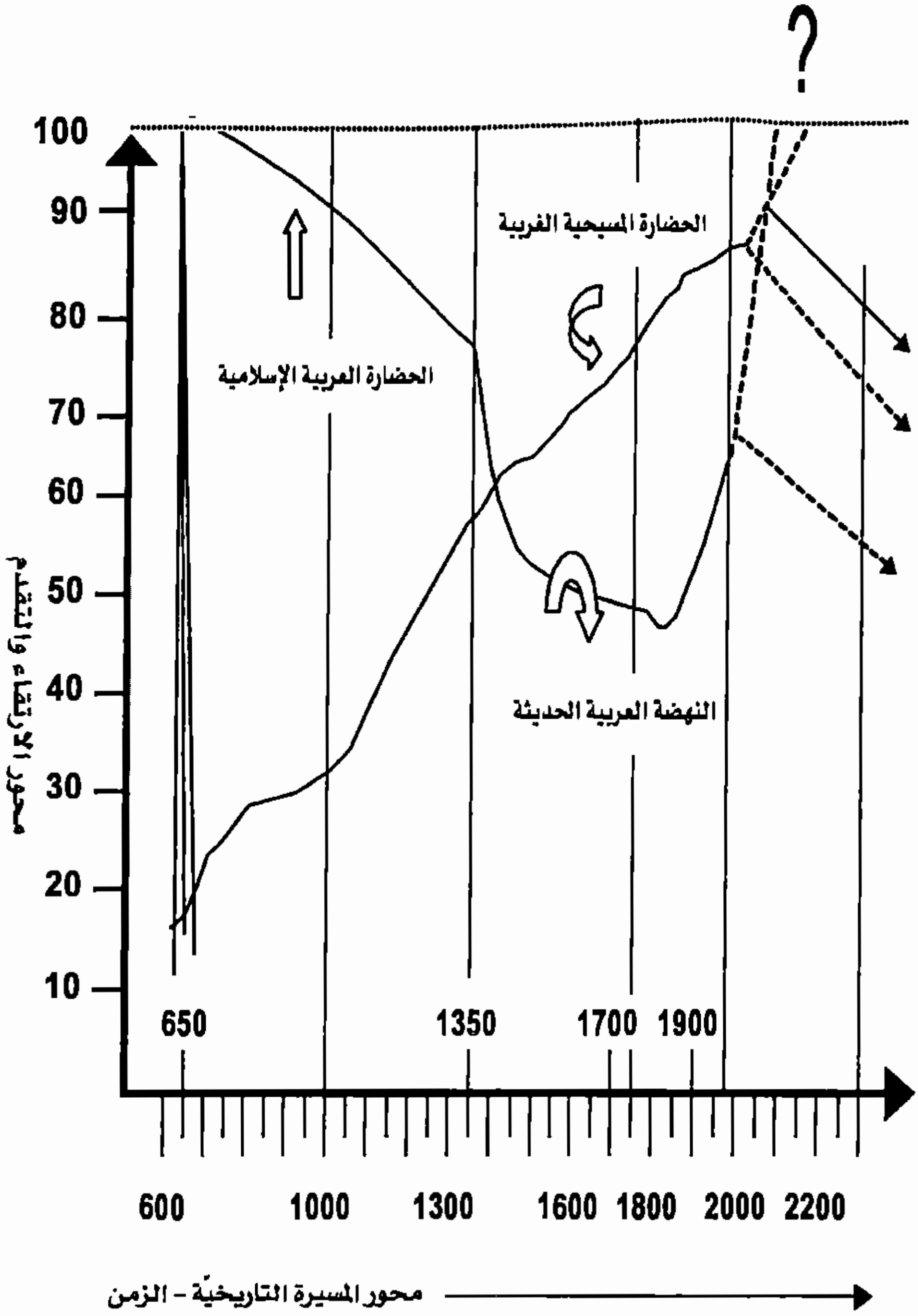
?
100
90
80
70
60
50
40
30
20
10
الحضارة المسيحية الغربية
الحضارة العربية الإسلامية
النهضة العربية الحديثة
650
1350
1700
1900
600
1000
1300
1600
1800
2000
2200
محور الارتقاء والتقدم
محور المسيرة التاريخيّة - الزمن

III
خـاتـمـة
في ما تقدمه رؤيانا من تصحيحات في رؤية التاريخ ؟!

← **إن رؤيانا هذه للتاريخ تقدم العديد من التصحيحات لرؤية التاريخ** التي حاول أن يقدمها الذين لا يملكون مثل رؤيانا هذه في المعرفة والتاريخ!!!. . . فرؤيانا هذه تقوم على نظرية محددة في المعرفة. . ونظرية محددة في التاريخ تحفظ للوحي وتطوره دوره في الوعي الإنساني وتطور هذا الوعي، وتقرن اكتمال الوعي الإنساني بتحقيق الوحي غايته في تطور البشرية ← فاكتمال النبوة والرسالة تعني اكتمال الوعي الإنساني عقلاً وإرادة. . .

فنشأة التاريخ يوم أن اكتسب آدم المعرفة وعلم الأسماء كلها!. . . **والنبوات والرسالات تصحيح وتقدم وارتقاء في التاريخ**[1] **ولقد كان للأنبياء والرسل** «**دور**» و«**رسالة**» **في تصحيح وتقدم وارتقاء الوعي الإنساني، وكان اكتمال الرسالة إعلاناً لاستقلال العقل والإرادة. . واكتمال الوعي الإنساني!!!**

. . . **ثم استدار الزمان ليتحرك الناس** - بين **محورين**[2]: الزمان والتقدم والارتقاء!!! وبدأ التاريخ الحديث **وبدل أن يكون تاريخ حركة الناس. . كل الناس. . . كان تاريخاً** لإرث «يهودي - مسيحي» وإرث آخر لتجربة «عربية - إسلامية» كانت في جانب من جوانبها تجربة نموذجية قدمت تحققاً للوحي، ولكن

---

(1) إن التقدم والارتقاء في التاريخ قد تحقق عبر التداخل والتفاعل بين الوقائع والقيم← وهكذا فان استشفاف هذه العملية المتبادلة هو أساس ومقياس الموضوعية!!!

← وفي هذا المجال قد تندمج الذات في الظواهر موضوع القياس؟

← على أنه في مستوى آخر (أي في مجال أصغر) قد يحصل العكس. . فتندمج الظاهرة في محل الذات!!!

(2) وإن عالم الحقيقة التاريخية يقع في مكان ما بين **المحورين/ محور الوقائع عبر الزمن، ومحور الأحكام القيمية التي تكافح لتحويل نفسها إلى وقائع!!!**

إننا هنا أيضاً في طرح من جديد للعلاقة بين الزمان والمكان، وهو قد يكون زمان الملاحظ ومكانه (أو منظومته المرجعية)!!! وقد نتحدث في مستوى آخر عن مكان لزمان ومكان لموضوع!!!

للأسف الشديد كما علق بالإرث «اليهودي – المسيحي» بقايا الإرث «اليوناني – الروماني»[1] !! فقد علق بالإرث «العربي – الإسلامي» تحول الوحي من الفكرة إلى الشخص.. ومن تحقق الرسالة في الواقع التاريخي إلى تعظيم الشخص!!! ثم كان ما كان من تحول «أن كل ابن آدم خليفة في الأرض» إلى القول بالخلافة لشخص!!!... **وحل بدل الشورى لكل أولئك** ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ سورة الشورى / الآية 38، **أن تكون الشورى للبعض**!!! وصار العزم والإجماع – وهو إجماع الأمة – والذي كان كفيلاً بأن يقدم تحققاً للوحي في التاريخ.. إذا التزم «الشرعة».. وكان المنهاج مفتوحاً على قاعدة «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن»!!! ← **صار** العزم أو الإجماع **للبعض الأقل أيضاً**!!!

وهكذا **انقضت الشورى.. كما تم الانقضاض على المال**.. مال الله... والذي هو مائدة الله المسخرة لعباده أجمعين ← وهم مستخلفون فيها جميعاً... **ثم كان ما كان من أمر «التبعيض الأَموي» الذي أثار «الشعوبية»**!!! والتي صارت

---

(1) **ومن أول خيط في الفجر الأوربي**: حضارة اليونان.. حتى الفترة المعاصرة... نكاد لا نجد إلا أوربا الوثنية بأبعاد إنسانية قاصرة.. تكاد أن تكون عنصرية!... تخص أوربا، ولا غير أوربا!!!

وأوربا الميثولوجيا غانية لعوب يحملها ثور أهوج.. يذهب بها كل مذهب ويعربد ما شاء له ولها الجموح!!!

وأوربا لا نجد لديها عناية أو احتفالاً بفطرة الدين أو القيم التي تسمو فوق عبث الطبيعة البشرية أو أهواء الأفراد!!!

ففي حضارة اليونان لا نجد هذا.. حتى في كتاب أفلاطون «الإلهي»!!! – كما سموه – دع عنك أرسطو العملي أو ديمقريطس المادي.

وفي ظهر التاريخ الأوربي رفعت روما لواء الوثنية إلى ما لم تبلغه أبداً في مجتمع آخر.. وبحيث طبعت المجتمع الأوربي بطابع لم تتخلص منه.

وفي عصر التاريخ الأوربي استهدفت حركة الإحياء والنهضة (الرينسانس) بعث الحضارة اليونانية والرومانية بفنونها وأدبها ووحشيتها وشهواتها واستعمارها...

واحتفظت أوربا بقشرة رقيقة من المسيحية لدى أوربا هي عقيدة الإله الإنسان، وهي صورة من صور وثنيتها القديمة تجعل المسيح نسخة أخرى من «الإسكندر» أو «قيصر» المؤلهين!!.. فإذا كان تصور المسيح تعقيداً ثيولوجياً غامضاً.. فلن يكون اكثر مما أضفته الميثولوجيا اليونانية على «هرقل» أو «أشيل» أو غيرهما!! ممن كانوا ثمرة تزاوج آلهة ببشر!! واعتبروا آلهة وأنصاف آلهة!! وقد نجد في «بروميثيوس» تصويراً مماثلاً لتصور المسيح كإله؟!.

تعني بدلاً من ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ سورة الحجرات/ الآية 13، صارت تعني النعرات العنصرية والشوفينية!!!

إن المعارك الأولى في الإرث «العربي - الإسلامي» إنما كانت بين من يريدونها **شورى وعدالة وقوميات متعايشة**، من جهة، **وفي مواجهة** من يريدونها **«جبارية»! أو كسروية أو قيصرية.. ومع الاستغلال.. و«التبعيض» الأموي والشعوبية البغيضة!**... من جهة أخرى.

← إن رؤيانا هذه للتاريخ تقدم العديد من التصحيحات للتاريخ فهي:

(1) المحاولة الأولى في حقبتنا المعاصرة لتقديم تفسير لـ«تاريخنا الحضاري» إذ إنه كان خاضعاً لتفسير يقوم على المركزية الغربية.

← وقد استطاع الغرب أن يجعل نفسه مركز التاريخ بأن جعل حركة التاريخ يحكمها بعد هو بعد الامتداد الزمني الذي حدد بدايته وجعل امتداده معياراً للتقدم فكل حقبة تلت ما قبلها هي أكثر تقدماً!! وبالتالي فإن القرن العشرين هو الأكثر تقدماً في كل التاريخ البشري.

وهم في القمة في هذا القرن ← فهم في قمة التاريخ الحضاري؟؟؟.

وهذه المحاولة محاولتنا تقول إن **التاريخ له بعدان أو محوران**، **بعد الامتداد الزمني وبتحديد مختلف عما حدده الغرب وبعد أو محور هو محور الارتقاء والتقدم ← وحركة التاريخ الحضاري داخل هذين المحورين تحدد في شكل رسم بياني قد لا يعطي صفة الارتقاء والتقدم لكل زمن متأخر منها وقد يكون زمن متقدم له من الفضل** - إن لم يزد - **عن المتأخرين**.

(2) **وهذه المحاولة تقول: إن التاريخ الإنساني وصل إلى قمة الارتقاء والتقدم بكمال التوحيد وتمامه فيتخذ من إكمال الدين وإتمام النعمة واختتام النبوة بداية لمرحلة استقلال العقل مع حفظ المكانة لتلك المرحلة التي قادها الأنبياء والرسل** - بدعوة التوحيد.. خير ما قلت أنا والأنبياء من قبلي كلمة «لا إله إلا الله» وكان ختامها على يد محمد يوم أن تلا قوله عز وجل: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ ويومها أعلن انتهاء النسيء والتلاعب بالأشهر واستدارة الزمان كيوم أن خلق الله السموات والأرض.

(3) **وهذه المحاولة توضح أن حركة التاريخ الحضاري لأمتنا**، داخل هذين المحورين، **قد وصلت إلى القمة بكمال الدين وتمامه واختتام النبوة، وأنَّ ما اعتراها من نقص فيما بعد إنما هو نقص قياساً إلى القمة التي قصرت عنها لا قياساً إلى الإطار التاريخي العام**، وهذا يمكن من نقد تاريخي موضوعي لحركة التاريخ الحضاري لأمتنا وذلك بالمقارنة النسبية لحقب تاريخنا العربي الإسلامي بلحظة الكمال «ك» وما بعد الكمال «ب ك». . ومقارنة هذه الحقب بتاريخ العالم. . التي تحدث وسط الزمان الممتد ← مع تمكيننا من نقد الذات دون تلذذ بإيذائها!!! ومواجهة ما حدث من نقص لأمور الحكم والمال والاجتماع ← تمهيداً لتصحيحها.

وهذه المحاولة توضح أن النقص الذي اعترى استمرارية التجربة الكاملة - وهو نقص بدأ بعد كمال - لم يَعْنِ التدهور منذ أول يوم، بل استمرت مع النقص إلى أن وصلنا إلى نقطة علا فيها معدل النقص على القوة فظهر التدهور. .

(4) **وهذه المحاولة توضح الخطأ الذي وقعت فيه محاولات النهضة الحديثة لامتنا ومازالت واقعة فيه محاولاتنا المعاصرة** إذ لم تنتبه إلى أن **محاولاتنا يجب أن تكون للارتفاع - وليس العودة. . فالعودة عبر الزمن مستحيلة؟!** - إلى **المستوى السامق** الذي رسمته لحظة الكمال وليس أي مستوى آخر دونه. . **وعلى أن يكون على مستوى عصرنا وعالمنا في هذا العصر.**

(5) **وإن أمتنا لقادرة أن تنقذ نفسها وتنقذ الآخرين باختيار الخير لنفسها. . والى الإنسانية كلها. . يوم أن تقدم الاختيار الخير** وسط **ما تطرحه التكنولوجيا من تساؤلات: فتكنولوجيا الحرب** صارت **تطرح سؤال** أحرب **أم** سلام؟ أفناء **أم** بقاء؟. . **وتكنولوجيا الزراعة والصناعة** صارت **تطرح سؤال** أاستمرار لنظام يقوم على الاستغلال وسوء التوزيع **أم** إقامة نظام عالمي جديد يحقق الكفاية للجميع والعدالة في التوزيع؟. . **وتكنولوجيا المواصلات**، وقد صغرت العالم إلى قرية، صارت **تطرح سؤال** أاستمرار العنصرية والتفرقة **أم** تعايش وتعارف وتآخ؟. . **وتكنولوجيا الاتصالات والإعلام** صارت **تطرح سؤال** أتدفق إعلامي من جانب واحد **أم** تحاور وتشاور وبحث عن الحق والحقيقة؟. .

← **ومجموع الاختيارات هو** اختيار **ثقافة عدوانية** تؤدى إلى الحروب إذا ما استمر الاستغلال وسوء التوزيع والتجويع والعنصرية. . **أم اختيار ثقافة سلام** يقوم على الكفاية والعدل والتحاور والتشاور.

وإننا لنملك الاختيار الخير والحل النهائي. . ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شهيداً علينا لنكون شهداء على الناس. . .

← **إنها الرسالة الخاتمة. . احتواء الماضي. . واستشراف المستقبل. . .**

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى أخويه عيسى وموسى. . وسائر الأنبياء والرسل، أفضل صلاة وسلام. . .

الأربعاء الخامس من شوال/ 1414ق من إكمال الدين واختتام النبوة
17/ 11/ 1372 ش بوفاة محمد صلى الله عليه وسلم
(2004ش من ميلاد السيد المسيح عليه السلام)

(إبراهيم بشير الغويل)
من الذين يجتهدون ويجهدون ويجاهدون
من أجل مشروع حضاري عربي/إسلامي/تقدمي
(معاصر ومستقبلي.. وعالمي إنساني.. وللناس كافة...)

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

وبه نستعين

المحاضرة الثانية

لقد عرضنا في محاضرتنا الأولى لـ «منهج في التفكير» . . هو منهج واقعي - عقلاني - علمي - عملي . . .

ولقد عرضنا لـ «مُحَدِّدات» لكلٍّ من **الواقع . . و التفكّر والتّعقّل . . والكلام العلمي . . والعمل . . .**

ثم عرضنا لهذا المنهج ، وبـ «مُحَدِّداته» للواقع ، وتطبيقاته على «الواقع الإنساني» المعاصر وعلى «عالمنا في سياق عصرنا» . . وتوقفنا ونحن نحدد «من نحن . . ومن هو الآخر» في «عالمنا في سياق عصرنا» . . . ؟ توقفنا عند «رؤية للتاريخ» . . . أما في هذا المحاضرة . . فنستكمل **تطبيق هذا المنهج على فكرنا الذي ينصب على هذا الواقع لنتخلص إلى كلام علمي . . ب «معالجة» و«أسلوب» و «شكل» . . . ؟ تمهيداً إلى وضع «خطة» للعمل . . يتم «تدبر» أمر تطبيقها . . انتهاءً إلى تنفيذها إن شاء الله** . . بما يحدث نهضة بإذن الله . . .

← فنحن ، كما قلنا بداية ، إننا نرى أنه في أي «مفردات» لـ «ثقافة إسلامية» لابد أن يتم التأصيل لـ «**منهج للتفكير**» و «**رؤية للتاريخ**» و «**مشروع حضاري إسلامي» معاصر ومستقبلي** لـ «عالمنا في سياق عصرنا» . . وبكل العطاءات الإنسانية . . . ؟ فيكون محتوياً لكل هذه العطاءات . . ومستشرفاً لآفاق المستقبل . . .

III
تطبيق المنهج على فكرنا

تطبيق منهجنا على فكرنا الذي ينصب على واقعنا – خاصة . . فان **تفكيرنا يجب أن يكون** كما يلي :-

1- من خلال مشاهدة وملاحظة واقعنا – بالاستقراء والاستقصاء والإحصاء – **تكونت انطباعات يجب** أن نتذكرها ممحصة على الوجه التالي :-

1- نحن نعيش **في عصر** يطرح اختيارات حاسمة لمصير الإنسانية كلها ومصيرنا خاصة .

2- ونحن نعيش **في المنطقة** التي يتهددها أشد ما تطرحه هذه الاختيارات ألماً . . وبالتالي فنحن الذين نواجه التحدي لنخرج من الألم إلى الأمل .

3- ونحن أمام الاختيارات بفعل التحدي نحاول أن نعرف كيف وصلنا إلى ما وصلنا إليه ونتطلع إلى الخلاص .

❖ فنحاول أن نعرف **تاريخنا** ❖ ونحاول أن نعرف **آفاق التقدم** ❖ ونحاول أن نعرف **طريق التقدم**.

4- وقد عرفنا من **تاريخنا**:

❖ **أنّ تجربتنا الحضارية الأولى لم تكن ترجمة كاملة لكل ما خطه الإسلام ولم يكن تراثنا سوى احتمال واحد من احتمالات أخرى** لم يقدر لها أن تظهر تاريخياً بعد ❖ وبتعبير آخر فإن **مناهج السلف لم تكن كافية لرؤية كل ما يتحمله الإسلام** من **ارتقاء وتقدم** وآفاق . . .

❖ ومع ذلك فإن تجربتنا الحضارية تؤكد حقيقة **أنّنا أصحاب دور و رسالة** وأننا أثّرنا في الحضارة الإنسانية . . .

❖ **وتؤكد المسيرة التاريخية أنّنا كلّما نزلنا دون خط الارتقاء والتقدم الذي خطه الإسلام دخلنا عصور التخلف واستضعاف الغير لنا . . .**

❖ إننا **نتيجة** عصور التخلف ، **ونتيجة** استضعاف الغير لنا ، **صرنا على استعداد للتأثر بأحوال وآراء الأمم القوية . . .**

❖ **والاختيار** – المطروح أمامنا هو: –

أ– أنْ نبحث كيف يؤثر ما توصل إليه التطور البشري الحديث من العلوم والمعارف والمناهج في تراثنا..

ب– أو نبحث كيف نلوّن تفكيرنا بآراء الأمم الأخرى.

جـ– أو نبحث **كيف نتخير الخبرات الحضارية اللازمة لترجمة جديدة لأصول ومبادئ وأفكار الإسلام الكبرى في الارتقاء والتقدم والتطور**، فنفيد من التراث الإنساني وتراثنا ونستكشف ما يظهره خط الارتقاء والتقدم في طوره الجديد بما يلائمه من فكر وثقافة وتربية.. وما يلائمه من مؤسسات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية...

5– وببحث آفاق التقدم وطريقه كان أهم ما توصلنا إليه هو: –

❖ **أهمية سعة الأفق** في (علاقة الإنسان بالزمان) وفي (علاقة الإنسان بالمكان) وفي (علاقة الإنسان بالآخرين).

❖ أهمية انعكاس سعة الأفق في نفس وعقل الإنسان بحيث.. **من علاقته بالزمن** يكتسب **تاريخاً** ومنطق عمل **«فعالية»**.. **ومن علاقته بالمكان** يكتسب **بعداً جغرافياً وصلة بأرضه وأشيائه** يتمثل في **إنتاج وذوق جمالي**.. ومن **علاقته بالآخرين** يكتسب **بعداً اجتماعياً** في **مواجهة حاجاته** ودوافعه **وتكون له أخلاق**.

2– بعد هذه الانطباعات المبدئية ولتمحيصها تبدأ مهمة الفكر:

❖ **وأول مرحلة هي التصنيف.. ثم فرض الفروض وتحقيقها** أو **الإدراك والتمييز بين الاختيارات.. فتحديد الاختيار.**

❖ فماذا يقدم لنا واقعنا من مشكلة أو مشكلات؟ وما هي الاختيارات المطروحة أمامنا؟ وما هو اختيارنا أو معالجتنا للواقع؟

❖ مشكلتنا ❖

إن مشكلتنا الحقيقية – وعلى ضوء تصنيف يحدد الأساسي والثانوي أو الجوهري والعرضي إلخ – هي:

1- أننا لسنا في مستوى العصر.
2- وأننا نعيش في منطقة تخلفت.
3- ولكننا نحن «العرب والمسلمين» وقد وجدنا أنفسنا هكذا عدنا إلى تاريخنا فوجدنا أننا قد خضنا تجربة حضارية تقدمية.
4- وقد وقفنا نتأمل تجربتنا الأولى ونرى واقعنا من خلالها فاحترنا **بين** أن نتخذ منها قدوة **وبين** أن نقتدي بالمتقدمين المعاصرين **وبين** أن نمزج بين الفكر الإسلامي والتطور ونكشف لأنفسنا وللآخرين **طريقاً ثالثاً**...
5- ولكن آفاق التقدم التي يطرحها العالم المعاصر أوضحت لنا **أنّ علاقات الإنسان بالزمان و المكان و الآخرين و انطباع ذلك في فكر ونفسية الإنسان هي أهم شروط النهضة.**

❖ فما هو طريق التقدم؟ وما هي الاختيارات؟ وما هو اختيارنا؟

❖ فرض الفروض ❖

[وما هو طريق التقدم أو ما هي [المعالجة] لهذا الواقع؟]

❖ ولقد كانت الإجابة التي قدمتها [**الحركة الإصلاحية** - الأفغاني وعبده] هي رجوع إلى ظروف ميلاد المجتمع العربي الإسلامي الأول.

❖ وكانت الإجابة التي قدمتها [**الحركة الحديثة** - احمد خان ولطفي السيد وطه حسين]هي تقليد المجتمع الأوروبي المسيحي اللبرالي. (ومنه تفرعت حركات تقليد المجتمع الأمريكي الرأسمالي أو الروسي الشيوعي) الخ.

❖ أما الإجابة التي حاولت أن تقدمها (**الحركة العربية الإسلامية التقدمية** - ناصر ومعمر) **هي أن نقدم لأنفسنا وللآخرين طريقاً ثالثاً**..

❖ تحقيق الفروض أو (مناقشة الاختيارات) ❖

← من الواضح **أنّ إجابة (الحركة الإصلاحية - الأفغاني وعبده)** تقوم على أساس فرضية تقول: إن ظروف ميلاد مجتمع ما؟ هي شروط وخصائص للنفس الإنسانية في مرحلة معينة، وهذه الشروط والخصائص تتكرر في كل مرحلة أو ظروف ميلاد مجتمع.. أو بتعبير أدق: إن مرحلة أو ظرف ميلاد مجتمع تتكرر كل ما وجدت شروط وخصائص نفسية.

ولكن هذا الافتراض كان يقتضي من القائلين به أن يحرصوا (كما يفعل العالم الطبيعي) على دراسة الظواهر في أنقى أشكالها أو في أكثر أوضاعها تحررا من أي تشويش خارجي. . !

وهذا يعني أن النموذج قد تحقق قليلاً في شكله الكامل ! وأن هناك درجات متفاوتة في تجسيده. . !

ولكن هذا الافتراض كان يقتضي من القائلين به أن يحرصوا (كما يفعل العالم الطبيعي) على دراسة الظواهر لاكتشاف القانون الذي يحكم الظاهرة. . أو الشكل العام الذي يفرض نفسه على كل مجتمع. . !

وهذا يعني إمكان استخدام القوانين أو السنن التي نكتشفها لمعرفة وجهة أي ميلاد والتنبؤ به. . كما يعني إمكان تسريع الميلاد وإتمامه وفق قوانين محددة !

- **ومع كل أسف فإنه بدل أن** ترجع **«الحركة الإصلاحية»** إلى ظروف ميلاد المجتمع العربي الإسلامي. . فتهتم «لتربية دار الأرقم» و «بناء مجتمع المدينة». . .

بدل هذا عدنا إلى الإسلام التاريخي، وهو على درجات متفاوتة في تجسيده للإسلام النقي، وعدنا للفقه ولم نعد للشريعة. .

- **وللأسف فانه بدل أن** نعرف القانون الذي يحكم ظاهرة المجتمعات. . أو الشكل العام الذي يفرض نفسه على كل ميلاد مجتمع !

بدل هذا حاولنا أن نبدأ بالإسلام من حيث انتهى ! فلم نبدأ من ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ بل «بدأنا» من ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾. . .

← الحركة الحديثة - أو (المقلدون)

❖ من الواضح أن إجابة (الحركة الحديثة - احمد خان ولطفي السيد وطه حسين) تقوم على أساس فرضية تقول **إن** أفضل طريقة لدرء خطر الشيء المجهول هو تعلم أسراره - كما أنها نوع من «**المعاصرة**» **للعالم** الذي نعيش فيه وتضغط علينا تأثيراته. .

ولكن هذا الافتراض كان يقتضي من القائلين به أن يحرصوا كما يفعل العالم الطبيعي على دراسة الظواهر في علاقتها مع الظروف المحيطة !

وهذا يعني أن الظاهرة محكومة بظروفها . . .

وهذا الافتراض كان يقتضي من القائلين أن يحرصوا «كما يفعل العالم الطبيعي» على دراسة الظواهر وتطورها . .

وهذا يعني العودة إلى تاريخ هذه الحضارة وتكوينها . . .

❖ **وللأسف إنّه بدل** أن تدرك «الحركة الحديثة» – علاقات الحضارة الغربية بظروفها الموضوعية . . بدل ذلك اكتفت بتقليد حرفي لحضارة يذيبون أنفسهم فيها . . .

❖ **والتقليد لا يطلق الطاقات المبدعة . . وإذا ما أَفْلَحَ في خلاص أقلية ضئيلة في أي مجتمع تبنّى طريق التقليد! فإن الغالبية لا أمل لها سوى في التحول إلى أعضاء خاملين في الطبقة الحاكمة للحضارة المقلِّدة «بكسر اللام» – ومآل الغالبية هذه هو تضخيم عدد (بروليتاريا) الحضارة المقلَّدة «بفتح اللام».**

❖ **وللأسف** أيضاً فانه **بدل أن** تدرك «الحركة الحديثة» تكوين العقل الأوروبي وتهتم لذلك اهتمت بالمنتجات الحضارية – وكأنها تتصور أنَّهُ في إمكاننا أن نأخذ بالمعاصرة والعالمية دون التفات إلى المسيرة التاريخية . .

❖ **وجماهير الشعب لم «تَتَغَرَّبْ» . وما أن يصل «المتغربون» للسلطة حتى يبدأ التناقض الداخلي بين حفنة من أبناء الطبقة الوسطى وهم «المتغربون» وبين الجماهير الشعبية التي تمارس ضغطا قوياً دائماً عليهم**، ولقد ازداد هذا الضغط تأكيداً وإلحاحاً عندما ظهر إفلاس الغرب الروحي والأخلاقي وظهر معه الإفلاس الأخلاقي للطبقة «المتغربة»!

1- ← معالم حركة ثالثة ❖

لذلك كله، عندما نبحث في هذه الدراسة موضوع مستقبلنا، وانعكاسات هذا على مستقبل الإنسانية، يمكننا أن نهمل من حسابنا الاختيارين السابقين **ونتطلع إلى معالم حركة ثالثة لها أصالتها وليس لها قصور في ميدان التطور، ولها «معاصرة» و «عالمية» المتغربين وليس لها تبعيتهم**، حركة إبداع أصيل . . تعمل من أجل حضارة إنسانية **مستمرة ومتجددة**! . . .

وهي حركة **ثالثة** بمعنى آخر أيضاً فهي الرأس المالية والماركسية وتختار طريقاً ثالثاً للإنسانية كلها.

تحديد اختيارنا

انتهينا إلى أن اختيارنا هو الاختيار الذي يتصف بما يلي: -

1- يأخذ ب (المعاصرة) و (العالمية) ولكنه يتجنب عيوب «الحركة الحديثة» في نسيانها لمراعاة الظروف المتعلقة بكل حضارة.. **فيدرك علاقة الحضارة الأوروبية المسيحية** «بمختلف تجاربها» **بظروفها... ويدرك الظروف المتعلقة بنا وتاريخنا** وكل هذا يجعله يدرك **ما يميز «ظاهرة الحضارة» من وحدة وتنوع**! كما أنه يدرك أنَّ تحديث - أو «عصرنة» - بعض مظاهر حياتنا لا يعني أنَّنا «حداثيون» أو «عصريون» بل يعنى «أنَّ القرود تحب التقليد»! ويعنى التهافت وفوضى المجتمع!

2- ويأخذ اختيارنا على ذلك في اعتباره «من نحن» و «ما هي مسيرتنا التاريخية» في علاقتها مع المسيرة الحضارية ولكنه يتجنب عيوب «حركة الإصلاح» في أخذها بالإسلام التاريخي.. متناسية أنَّهُ «تراث» وليس ترجمة كاملة لكل ما يمكنه أن يتحمله الإسلام منْ تفسير، فهو لم يكن سوى احتمال واحد من بين احتمالات أخرى لم يقدر لها أن تظهر تاريخياً بعد. **ويأخذ اختيارنا**؛ لكل ذلك. **بكل «معامل» يحدد الواقع الإنساني على الوجه التالي: -**

معامل الزمن (وروح العصر)

فيفكر في اختيارات السلام و الرخاء و التعايش برسالة الحق. ولاشك أن هذا يقتضي **الخبرات الحضارية اللازمة لترجمة أصول ومبادئ وأفكار الإسلام الكبرى إلى ما يظهرها ويلائمها من مؤسسات خاصة وعامة سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية...**

معامل المكان «وعالم اليوم»

فيفكر في إبْعاد شبح الحرب والاستغلال والتفرقة العنصرية والسيطرة والعلو في الأرض، ولاشَك أن هذا يقتضي **البحث في التراث البشري ودراسة الإسلام**

من جديد وكيف يؤثر ما توصل إليه عالم اليوم في دراسة وعرض الإسلام باعتباره الجديد الذي نتج عن تلاقيه مع الحضارة المسيحية الأوربية . . .

- ويقول توينبي :

«والواقع أن تأثير الغرب بدأ يحرك كوامن الإسلام ويمكننا أن نميز في هذه الأيام المبكرة بعض الحركات الفكرية التي يمكن أن تصبح أجنّة لديانات سامية جديدة» . . .

- ويقول توينبي :

(وإذا كان للسوابق التاريخية أي معنى عندنا ، وهي (أي السوابق التاريخية) إشعاعات الضوء الوحيدة التي يمكن أن نلقيها على الظلمات التي تكشف مستقبلنا فإنها (أي السوابق التاريخية) تنذر بأنَّ **الإسلام إذا دخل عالم بروليتاريا الحضارة الغربية الحاضرة (وهو المكان الوحيد المسموح به في عالم اليوم لغير أهل الغرب) قادر في النهاية على منافسة الهند والشرق الأقصى وروسيا . . و قادر على التأثير في المستقبل** بأساليب عدة **تسمو على فهمنا وإدراكنا)** . . .

- ويقول توينبي :

(باستطاعتنا أن نميز بعض مبادئ الإسلام التي إذا طبقت في الحياة الروحية للبروليتاريا العالمية الحديثة يمكن أن تأتي بنتائج حسنة مفيدة لهذا المجتمع الكبير في المستقبل القريب . هناك مصدران ظاهران من مصادر الخطر . . (الأول نفسي والثاني مادي) في العلاقات الحاضرة بين البروليتاريا العالمية وبين الفئة الحاكمة في الغرب . . . ومصدرا الخطر هذان هما (1) التمييز العنصري (2) الخمر * وفي مجال الصراع ضد هذين الشرين نجد للفكر الإسلامي دوراً يؤديه ويبرهن فيه - إذا سمح له بتأدية هذا الدور - عن قيم اجتماعية وأخلاقية سامية ، فعدم وجود التمييز العنصري بين المسلمين هو أحد أبرز الإنجازات الأخلاقية للإسلام ؛ والعالم المعاصر في وضعه الراهن بحاجة ماسة لنشر هذه الفضيلة الإسلامية .) . . .

- ويقول توينبي :

«إن قوى التسامح العنصري ذات أهمية ضخمة للإنسانية ، وهي الآن ، وعلى ما يظهر ، تخوض معركة خاسرة على الصعيد الفكري ، إلا أنها قد تتمكن من الغلبة

إذا ساندها ونزل إلى جانبها في المعركة رصيد من النفوذ القوي المناضل الذي لم يزل حتى الآن احتياطياً.

والذي أتصوره أن روح الإسلام ستكون التعزيز المناسب الذي سيقرر مصير هذه المعركة لمصلحة التسامح والسلام». . .

- **ويقول توينبي :**

«أما شرب الخمر فهو الآن في [أَوْجه] بين الشعوب البدائية في المناطق الاستوائية التي [استعمرها] الغرب ورغماً عن أن قسماً من الرأي العام الغربي المتنور قد وعى هذا الشر وأتعَبَ نفسه في محاولة مكافحته، فإن نتائج تلك المكافحة لم تتعدَّ نطاقاً ضيقاً جداً». . .

- **ويقول توينبي :**

«إن بعض الأعمال الإدارية الحسنة قد قامت في هذا المجال، وعززتها الاتفاقات العالمية - وتدعم وتوسع هذه الاتفاقات الأمم المتحدة - إلا أن الحقيقة الواقعة هي أن التدابير الوقائية الدولية المعروفة من قبل سلطة خارجية تظل - مهما حاولت - عاجزة عن تحرير مجتمع من أي شر اجتماعي ما لم تقم في نفوس أبناء المجتمع أنفسهم إرادة داخلية تتبع هذا الطريق مختارة راغبة». . .

- **ويقول توينبي :**

«وتحويل نفوس السكان الأصليين نحو الخير أمر أرفع من أن تبلغه إمكانات هؤلاء الحكام الإداريين. . . وفي هذه المنطقة بالذات يمكن للإسلام أن يلعب دوره في هذا الموضوع».

- **ثم يتحدث توينبي عن احتمالات أخرى للإسلام :**

«وفي المناطق الاستوائية [المستعمرة] أوجدت الحضارة الغربية ملاءة اقتصادية وسياسية (!) في نفس الوقت الذي أحدثت هي نفسها فيه فراغاً اجتماعياً وروحياً».

- **ويقول توينبي :**

«والقول: إنَّ [الطبيعة تكره الفراغ] قول حق على الصعيدين الروحي والمادي والحضارة الغربية التي فشلت في ملء الفراغ الروحي وضعت تحت

تصرف أي قوة روحية أخرى ترود الميدان شبكة لا مثيل لها! من وسائل المواصلات المادية».

- **ثم يقول توينبي :**

«أما في المستقبل البعيد فيمكن التكهن باحتمال قيام الإسلام بالإسهام في أوْجُه جديدة للدين وهذه الاحتمالات المتعددة تتوقف على الوجهة السعيدة التي سيتمَخض عنها وضع الإنسانية الحاضر».

[وبهذه الفقرة نكون قد **وصلنا إلى الاختيار الإنساني**، وهو الذي **يحدد معامل العلاقات الإنسانية** [ومن نحن وما هو تاريخنا؟]

معامل العلاقات الإنسانية

**

من نحن؟ وما هو تاريخنا؟

وهنا نفكر في تحديد أنفسنا على ضوء [الاختيارات المطروحة] علينا ؛ مع الأخذ في الاعتبار أنّنا نعيش في [منطقة البروليتاريا العالمية] ولكن أمامنا احتمال القيام [بإسهام جديد] !

- و [الاختيارات المطروحة] علينا والتي نحاول أن نحدد أنفسنا لها هي اختيارات :

- ❖ أسَلام أم حرب - ونحن مع السلام . .
- ❖ أرَخاء أم استغلال - ونحن مع الرخاء للجميع كفاية وعدلاً . .
- ❖ أتعايَش أم سيطرة - ونحن مع التعايش . .
- ❖ أحَق أم سيطرة - ونحن مع الحق . .

ونحن بهذا نأمل ونعمل من أجل وجهة سعيدة للوضع الإنساني الحاضر . . وذلك حتى نحول الخليط المتنافر الذي نتج عن غزو الغرب للعالم **سلمياً إلى تركيب متجانس** دون استغلال وتفرقة واستعلاء - **وعلى أمل وبعمل** أن يشكل هذا التركيب بدوره . . تدريجياً وسلمياً أيضاً نوعاً من الإبداع الجديد . . **ولكن** . . باعتبار

أنَّنا نعيش في [منطقة البروليتاريا العالمية] ونعاني من تركيب غير متجانس [فيه الحروب والاستغلال والتفرقة والعلو والسيطرة. .] ينذر بانفجار ونحن لهذا الاعتبار وفي حالة وقوع مثل هذه الكارثة سيكون للإسلام دور مختلف تماماً، وهو دور العنصر الفاعل في ردة فعل عنيفة تقوم بها البروليتاريا العالمية للشعوب المسحوقة ضد أسيادها (!) الغربيين!

وهذه الإمكانية المدمّرة!!! للإسلام الجغرافي! لا تظهر الآن حتمية الوقوع؛ لأن الكلمة المؤثرة [الوحدة الإسلامية] والتي كانت دائما [بعبع] المستعمرين الغربيين منذ استعمالها في اللغة السياسية للسلطان عبد الحميد!، بدأت تفقد سيطرتها «ومع ذلك، وكما يقول توينبي، فإنه وإن كان صحيحاً أنَّ الوحدة الإسلامية نائمة. . . ولكن يجب أن نضع في حسابنا **أنَّ النائم قد يستيقظ** إذا ثارت البروليتاريا العالمية للعالم المتغرب ضد السيطرة الغربية ونادت بزعامة معادية للغرب؛ فقد يكون لهذا النداء نتائج نفسانية لا حصر لها في إيقاظ الروح النضالية للإسلام. . حتى ولو أنها نامت نومة أهل الكهف إذ يمكن لهذا النداء أن يوقظ أصداء التاريخ البطولي للإسلام».

وهذه الإمكانية [إسلام جغرافي] يدعمها [إسلام تاريخي] يمكن تلخيصه في هذا الصدد بعبارات توينبي التالية:

«وهناك مناسبتان تاريخيتان كان الإسلام فيهما رمز سمو المجتمع الشرقي في انتصاره على الدخيل الغربي؛ ففي عهد الخلفاء الراشدين بعد الرسول، حرر الإسلام سوريا ومصر [وغيرها] من السيطرة اليونانية التي أثقلت كاهلها مدة ألف عام تقريباً.

وفي عهد «نور الدين» و «صلاح الأيوبي» و «المماليك» احتفظ الإسلام بقلعته أمام هجمات الصليبيين والمغول». .

- **أمَّا باعتبارات تجاوز هذه النظرة الجغرافية والتاريخية إلى مناهج وآفاق** تمكننا من رؤية كل ما يتحمله الإسلام من انفتاح للتقدم وللإنسانية فإن **إسلامية صالحة لكل زمان ومكان** يجب أن نقدمها. . .

معامل الارتقاء والتقدم

**

وآفاق التقدم وطريقه

وهنا نفكر في تحديد مناهج و آفاق التقدم و طريقه، واستكشاف الفكر الإسلامي باعتباره دعوة لكل زمان ومكان. . أو باعتبارها لكل العصور. . وللإنسانية كافة. . مع ترجمة عصرية لهذا الفكر والدعوة! في [إسلامية علمية عالمية]

في آفاق ثقافية

إذا كان الفكر الثوري – أو المفكر الثوري – يحاول أن يكشف عن الواقع باعتباره (كُلاً) مترابطاً له قوانينه التي تحكم (حركته) والتي يمكن فهمها ضمن إدراك قوانين التاريخ وطبيعة المرحلة و المكان في سياق معاملي الزمان والمكان و فعالية الإنسانية.

❖ فآفاق الثقافة الثورية هي نسق من المعرفة التي تصور واقعاً اجتماعياً لمجموعة من الناس، في مكان ما، في عصر معين، في مرحلة تاريخية يمرون بها والعلاقات التي تربط بينهم وبينها.

❖ وخاصة الإنسان في صنع ثقافته ليست غريزية ولكن الدور الذي تمارسه في الحياة أشبه ما يكون بالعمل الغريزي. .

❖ والإنسان هو الكائن الوحيد الذي يحاول أن يعطي معنى لعلاقاته مع من حوله من أناس وما حوله من أشياء وحياة وكون!

❖ والثقافة أداة تصنيف وترتيب وتَوَحُّد، وهي إذ تَوَحِّد مجموع العلاقات الاجتماعية تكوّن أخلاقاً!. . وهي إذ تُوَحِّد مجموع الأشياء من أحداث وألوان وروائح تكوّن ذوقاً جمالياً!. . وهي إذ تُوحِّد مجموع الظواهر في الحياة والتاريخ تكوّن منطق التاريخ (أو فلسفة التاريخ) والمنطق العملي في الحياة (أو فلسفة العلم العملي). . وهي إذ تُوَحِّد القوانين في الكون والمجال الكوني كله تكوّن العلم! بالإضافة إلى ما تفتحه من آفاق في:

❖ **علاقات الإنسان بالإنسان**. . مجتمعه وتاريخه !❖ **علاقات الإنسان بالمكـان**. . أرضه وعالمه !❖ **علاقات الإنسان بالزمان**. . فاعليَّةً وعصراً.

ملاحظة هامة:-

❖ **والحقيقة** أنَّه رغم أن طريقة اندماجنا في الطبيعة هي غير طريقة الحيوانات الأخرى . . مما يجعلنا نستشعر امتيازنا بين الأحياء وكأننا لا نخضع للقاعدة العامة – وهذا ما نعبر عنه بتكريمنا بالحرية ! «فلكل الكائنات الحية، ماعدا الإنسان، معرفة فطرية بالكون وبأنفسها، وهذه الغريزة تضطرها إلى الاندماج في الحقيقة الواقعية بصورة تامة وأكيدة، فليس لها إذن الحرية في أن تخطئَ، إذ إنَّ الكائنات التي وهبت العقل هي وحدها المعرضة للخطأ ومن ثم تكون قابلة للكمال» . . .

❖ **والحقيقة** أنَّ الغريزة لدى الحيوانات العليا محاطة بحاشية من الذكاء، إلا أن ذكاءها يجيء دائماً أمام الغريزة في أحداث الوجود الرئيسية.

❖ **وحقيقة** أنَّ قدراتنا العقلية (ملاحظة وتذكراً ومقارنة وحكماً وتجريباً) لازالت محاطة بحاشية من الغريزة إلا أنها ليست من القوة بحيث تمكننا من أن نكيف سلوكنا بها تبعاً للظروف.

❖ **وحقيقة أنَّ الإنسان بتحرره من الغريزة اكتسب المقدرة على الاختيار وصار عرضة للخطأ!**. . فالإنسان له أن يختار طريقه بين جميع الطرق التي أمامه، **وعليه بإرادته أن يلزم نفسه** – بمعنى من المعاني – **على أن** تسير في هذا الطريق دون الآخر!

ولكن:-

– خلال مسيرة التاريخ الإنسانيّ أمكننا أن نقوّي حدسنا – بما قالته الأديان قديماً وفلاسفة التاريخ وعلماء الاجتماع والنفس حديثاً – بضرورة خضوع الحياة الاجتماعية والنفسية لقوانين أساسية محددة على الإنسان أن يعرفها ويلتزمها، وإلا فإن جواب الكون لكل من عصى هذه القوانين هو إلحاق المصائب به.

– **وعسى أن يكون هذا الحدس أشبه بحدس العصور القديمة** – وقبل أن يتأكد حدسهم علمياً – **أن هناك نظاماً واضحاً بديهياً يسود العالم** «فالشمس لا تكف

قط عن الشروق، والليل لا يتخلف عن متابعة النهار، والربيع عن متابعة الشتاء، ويسير القمر دائماً في دورة واحدة لا تتغير»!. . «والأشياء التي توجد على الأرض وفي السماء ناشئة من تركيب عناصر أولية تقل عن المائة (أو تزيد عليها قليلاً)»!. . وإذا كانت هذه الأشياء لا تحصى عدداً فإنها مع ذلك، ترتبط جميعها برباط وثيق ويتبع كل منها الطريقة التي حددها له تركيبه وليس من الممكن أن تسلك الطبيعة مسلك الهوى! «والكائنات الحية كالكائنات غير الحية مكونة على نحو معين والحياة متجانسة مع الوسط الكوني والوسط الكوني متجانس مع الحياة»! **وهذا الحدس الذي يقوم على الإيمان بالاضطراد الجوهري هو الذي أدى إلى نشأة العلم.**

وقد برهن النجاح الهائل الذي أحرزه العلم على أن مثل هذا الاعتقاد ليس خرافة. . بل على العكس من ذلك؛ فهو حدس صادق بتركيب الكون والحياة؛ فالعلم لم يستطع التقدم إلا أن الكون والحياة تجهل الهوى!

- وإذا كان هذا الحدس - الذي قالته الأديان وبدأ يقول به العلم أخيراً - في صيغته التي تقول: -

«أغلب الظن أن نجاح الحياة الأخلاقية والاجتماعية يتوقف على قواعد محددة تحديد القاعدة الخاصة بخلط الغازات وانتشار الأمواج الضوئية وإنْ كانت أكثر منها تعقيداً».

- **وإذا كان هذا الحدْس سيثبت أنه صادق، فإنه علينا:**
- **أن نعرف قوانين الحياة.**
- وأن نلتزم بها «**إيماناً**» و «**نسلم**» أنفسنا بتواضع لهذه القوانين حتى نحقق السعادة لأنفسنا و «**نتقي**» المصائب التي هي جواب الكون والحياة لكل من عصى هذه القوانين!. . وبذلك «**نحسن**» لأنفسنا (وهذا هو الإسلام علمياً). . .

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

وبه نستعين

المحاضرة الثالثة

في ضوء «**المحاضرة الأولى**» عن «منهج للتفكير» وتطبيقاته عامة . . وتطبيقاته على «واقعنا» خاصة . .

/ ومع توقف عند «الرؤية التاريخية» . . . ثم مزيد توقف في «**المحاضرة الثانية**» عند تطبيق المنهج . . وما يقتضيه من «تفكّر وتعقّل» وتغيير جذري . ولعله «التبديل» الصحيح لكي ينهض الإسلام ، وتتجدد قيمه ، وتستمر مجتمعاته . . .

← وما خلصنا إليه بعد «تحقيق الفروض . . ومناقشة الاختيارات» من أننا في حاجة إلى تحديد **معالم حركة ثالثة** . . تتصف بما يلي :

(1) تأخذ بـ «المعاصرة» و «العالميةَ» ، ولكنها تتجنب عيوب «الحركة الحديثة» في نسيانها لمراعاة الظروف المتعلقة بكل حضارة . . فتدرك علاقة الحضارة الأوروبية المسيحية «بمختلف تجاربها» بظروفها . . .

وتدرك الظروف المتعلقة بنا وتاريخنا وكل هذا يجعلها تدرك ما يميز «ظاهرة الحضارة» من وحدة وتنوع ! . . كما أنها تدرك أن تحديث – أو «عصرنة» – بعض مظاهر حياتنا لا يعني أننا «عصريون» . . بل يعني «أن القرود تحب التقليد» ! ويعني التهافت وفوضى المجتمع !

(2) ويأخذ اختيارنا على ذلك في اعتباره «من نحن» و «ما مسيرتنا التاريخية» في علاقاتها مع المسيرة الحضارية ، ولكنه يتجنب عيوب «حركة الإصلاح» ، في أخذها بالإسلام التاريخي . . متناسية أنه «تراث» وليس ترجمة كاملة لكل ما يمكن أن يحتمله الإسلام من تفسير ، فهو لم يكن سوى احتمال واحد من بين احتمالات أخرى لم يقدر لها أن تظهر تاريخنا بعد . . .

وعليه فمعالم اختيارنا أنه يأخذ ، لكل ذلك ، بكل «**معامل**» **يحدد الواقع الإنساني** . . ويتحدد في «بديل» نعرضه . . .

وهذا «البديل» الذي نراه متمثلاً في «**مشروع حضاري عربي - إسلامي معاصر ومستقبلي**» نعرض لـ «**منطلقاته**» و «**مساراته**» و «**توجهاته**» . . .

منطلقات و مسارات و توجهات المشروع الحضاري العربي الإسلامي . . المعاصر . . والمستقبلي . . .

- قسمات عامة . .

- لابد من تغيير جذري . . لكي ينهض الإسلام، وتتجدد قيمه، وتستمر مجتمعاته الجديدة.
- وعملية التجديد هذه لا تعتبر مسألة في النظر أو العمل . . بل فيهما معاً . .
- وعلى مستوى الرؤية التاريخية . . والعمل الفكري الحاضر والشامل (والمستقبلي) . . .

۞۞۞

تجديد الفكر الإسلامي

[نحو مشروع حضاري عربي إسلامي معاصر (ومستقبلي) مع اهتمام بـ «المشروع الإسلامي والمستقبل»] .

۞۞۞

توجهات المشروع العربي الإسلامي وقسماته الحضارية

إذن . فنحن ننظر في **توجهات مشروع عربي إسلامي مع اهتمام مستقبلي** . . وباعتباره مشروعاً حضارياً إسلامياً . . ونتوقع تجديداً في هذا الفكر الإسلامي !!!

وإذا كان لنا من تعديل فهو أننا نرى أن «**التوجهات**» **ترتبط** «**بالمنطلقات**» . . **وهما معاً يحددان «المسار» في الحاضر و «المستقبل القريب» على الأقل في خطوطه العريضة والواسعة** (قسماته !!!) .

وبهذا يصير البحث بحثاً في «شريعة» للمشروع العربي الإسلامي . . تحدد منطلقاته . . وتحدد وجهته . . وبهذا تحدد مساره - وقسمات هذا المسار . . .

وإذا كان هذا هكذا، وإذا كان المنطلق الذي تتأسس عليه الرؤية المفهومية هو القرآن بمعنى أن «**الإطار المرجعي**» أو المعيار هو القرآن .

فنحن، إذن، مازلنا في البحث الذي يتصل بالتأسيس القرآني للمشروع الحضاري الإسلامي الجديد.. الذي لابد من أن يكون مشروعاً عربياً إسلامياً، فالقرآن قد جاء بلسان عربي مبين!.. ولابد من أن يكون مشروعاً معاصراً ومستقبلياً فلابد من أن يتضمن معالم مشروع سياسي قابل للفعل في ظروف العصر.. وأوضاع العصر بعامة، وأوضاعنا القومية والقطرية خاصة!!!

وعليه فإن مواضيع هذه المحاضرة الثالثة مترابطة كل هذا الترابط...

ونحن إذ **نعرض لـ «توجهات المشروع العربي الإسلامي وقسماته الحضارية» لابد من أن نعرض له من جانبيه التأسيسي والتطبيقي**... أو جانبيه **من حيث تأسيس الرؤية المفهومية ومن حيث القابلية للفعل في ظروف العصر**.. أو ظروف عصرنا وعالمنا - عالمنا بعامة وعالمنا الخاص!!!

فالأمر لا يعتبر مسألة في النظر أو العمل فحسب... بل فيهما معاً!!!

منطلقات... وتوجهات... وقسمات!!!

وأُولى النقاط، وأَوْلاها بالانتباه، هي أن الترابط بين «المنطلقات» وبين «التوجهات» ترابط وثيق، وهما معاً يحددان «المسار» العريض أو قسمات المشروع ومعالمه الظاهرة...

وفي اللسان العربي **بين** مشرعة الماء والشروع في الأمر أو مبتدئه، **وبين** الرماح المشرعة، **وبين** الشارع أو المسار الكبير.. يوجد رابط وأي رابط ومنه جاءت **الشريعة تفيد المنطلقات والتوجهات والقسمات**...

ونحن ندَّعي أن **هذه الأمور الثلاثة المكونة للشريعة هي أهم المكونات والمحددات لأي تعقل أو تفكر إنساني وبالتعقل والتفكر فيما حولنا من أشياء يتكوّن العلم** ويتطور ويتنامى.. **وبالتعقل والتفكر في علاقاتنا مع مَنْ حولنا تتكون الأخلاق**، ودون هذه المكونات والمحددات للإطار لا يكون من تعقل أو تفكر منتج.. بل تكون «الذرية» والتشتت والتخلف... فما **التقدم إلا فعالية الإنسان بتعقله وتفكره في ما حوله بأبعاد «الزمان - والمكان»... وبعلاقات مع الآخرين** في المسار العريض تحدده منطلقات متفق عليها ووجهة إليها يتجهون...

ولقد **اهتمت السماء بأن توفر** الشريعة «والوجهة» التي تعطي نقطة الشروع.. وتوجّه نحو هدف.. فتحدد المسار بحدود تقي «وتحقق التقوى» ولا تمنع التنامي «فتحقق التزكي أيضاً» فيكون الفلاح...

وقد يكون من المناسب أن نلاحظ أن التقوى والوقايات مع التنامي والتزكي يكون مآلها الفلاح.. بينما يكون الدس (والكبت!) مؤدياً إلى الفجور (والانفجار)! مؤدياً إلى الخيبة.. ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾. سورة الشمس/ الآيات 7 – 10.

واهتمام السماء هو اهتمام المطلق الذي علم أن **البشر نسبيون.. نسبيون محصورون في أنيّة وأينيّة و أنانيّة!!!... والشريعة من عند المطلق تعطي امتداد الزمان، واتساع آفاق المكان، وشمول وشرع الجماعة والجمهور والسواد**[1]..

وبذلك تحل إشكالية **الوعي المُتَسَمِّر في اللحظة، الضيِّق الأفق، القريب الجذور والأهداف.. المؤقت الاهتمامات.. ليكون الوعي الاستمراري.. و بآفاق متسعة**.. بالذات والآخر.. والدور.. والرسالة...

وبذلك يكون الوعي وعياً تاريخياً مستوعباً ومتنامياً ومتجاوزاً.. متسماً بالاستيعاب والشمولية.. وبالأفق الواسع.. والتجاوز والتحقق باستمرار...

والتحسين والتقبيح لا يكونان من العقل الإنساني.. وإن كان العقل الإنساني يدركهما متى عرضا عليه، فالعقل مضطر لقبول الحق... على ما قال الإمام الشافعي حقاً وصدقاً...

---

(1) قال رستم: «ما جاء بكم؟» قال ربعي: «الله ابتعثنا، والله جاء بنا، لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام..» وقال لهم: «يا أهل فارس إنكم عظمتم الطعام واللباس والشراب وإنا صغّرناهم، وقد عظّمنا الرأي والكلام والسيرة والوفاء والأحساب وقد أهملتموهم..» وحينما ذهب المغيرة بن شعبة قفز فجلس مع رستم على سريره، فغضب أخ لرستم وأمر الحرس فأنزلوه وأهانوه وجروه بعيداً، فقال المغيرة: «.. قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أرى والله قوماً أسفه منكم، إنا معشر العرب **سواء لا يستعبد بعضنا بعضاً**، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض، اليوم علمت أن أمركم مضمحلّ وأنكم مغلوبون وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول..».

فأيّ منطلقات؟... وأي توجهات... وأي قسمات؟

. . . إن منطلقاتنا وتوجهاتنا، المحددة لقسمات مشروعنا، هي منطلقات وتوجهات قرآنية. . لأن القرآن هو كلمة السماء الخاتمة. . .

۞۞۞

عن التأسيس القرآني للمجتمع:

إن البحث عن التأسيس القرآني للمجتمع. . لا يمكن أن يعني مجرد «إعادة إنتاج» لمواصفات الحقبة النبوية الشريفة نفسها بكامل مميزاتها. . الخ، كما لا يمكن أن يعني رؤية أخرى تختلف كل الاختلاف عن تلك الحقبة. . فتتجاهلها بحجة مفهوم المتغير الاجتماعي نفسه من وجهة نظر جدلية وتاريخية. . . الخ.

إن البحث عن التأسيس القرآني للمجتمع. . . إنما هو بحث في ظاهرة «مجتمع» واكتشاف للقانون الذي يحكم الظاهرة. . أو الشكل العام الذي يفرض نفسه على كل مجتمع!!!.

وهذا يعني إمكان استخدام القوانين أو السنن (!) التي تكتشفها لمعرفة كيفية تأسيس أي مجتمع – وفقاً للتأسيس القرآني للمجتمع – وإمكان «تسريع» الميلاد وتمامه وفقاً لقوانين محددة!

. . . وهذا يعني، بل يقتضي، الحرص – كما يفعل العالم الطبيعي – على دراسة الظواهر في أنقى أشكالها .. وفي أكثر أوضاعها تحرراً من أي تشويش خارجي. . . وهذا يعني أن «النموذج» قد تحقق قليلاً في شكله الكامل!. . وأن هناك درجات متفاوتة في تجسيده. . «تماماً كما للنظرية الهندسية تمرين مشهور. . هو الأمثل في تطبيقها. . ولله المثل الأعلى ويظل رسوله الأسوة الحسنة».

إذن. . فنحن نختلف في النظر لـ «التأسيس القرآني للمجتمع» عن أولئك الذين يرون أنه يعني عودة (والعودة عبر الزمن مستحيلة!!!) إلى فترة تاريخية ما. . . ولكننا نرى أن ظروف ميلاد مجتمع ما. . هي شروط وخصائص للنفس الإنسانية في مرحلة معينة، وهذه الشروط والخصائص تتكرر في كل مرحلة أو

ظروف ميلاد مجتمع . . . أو بتعبير أدق: إن مرحلة ظروف ميلاد مجتمع تتكرر كلما وُجدت شروط وخصائص نفسية .. . وعلينا أن نعرف القانون الذي يحكم الظاهرة أو الشكل العام الذي يفرض نفسه على كل ميلاد مجتمع!

. . . وبذلك يمكننا أن نستخدم القانون أو السنن التي نكتشفها لمعرفة شروط ميلاد مجتمع وتمام الميلاد و «تسريعه» وفق قوانين محددة!!!

كما أن علينا أن نحرص على دراسة الظاهرة في أنقى أشكالها وفي أكثر أوضاعها تحرراً من أي تشويش خارجي، كما يفعل العالم الطبيعي! أو علينا أن نحرص على تمثل التمرين المشهور باعتباره التطبيق الأمثل للنظرية، كما هو مقرر في الدراسات الهندسية!! . . وسيظل للتطبيق الرسولي مكانة المثل والأسوة وسيظل هدي الأنبياء والرسل قدوة!!!

۞۞۞

عن المعاصرة.. في التأسيس القرآني للمجتمع:

ولكن التطبيق الرسولي كأي تطبيق علمي يعني أن الظاهرة محكومة بظروفها . . وهكذا، وكما يفعل العالم الطبيعي من حرصه على دراسة الظاهرة وتطورها، فإننا نحرص على معرفة الظروف . . زماناً أو عصراً ومكاناً أو موقعاً . . وكذلك علاقات . . الخ .

ومن هنا فنحن نهتم لمعامل الزمان أو العصر . . دون إهمال للتاريخ . . . والمستقبل!!!

ومن هنا فنحن نهتم لمعامل المكان أو الموقع . . مع اهتمام بالبيئة .. والإبداع!!!

ومن هنا فنحن نهتم لمن نحن . . وما هي حركة تاريخنا ضمن تاريخ الإنسانية العام . . .

ومن هنا أهمية التجديد . . وأهمية أن تكون لمشروعنا جدية على مستوى الرؤية التاريخية . . وجدية في النظر والعمل أو العمل الفكري أو الفكر العلمي!! . . الخ .

ومن هنا أهمية أن يكون مشروعنا قابلاً للفعل في ظروف العصر.. وأوضاع العصر.. وأوضاعنا خاصة!!!

وكلمة لابد منها.. هي أن «السُّنَّة» تعني في اللسان العربي ما تدفق من مشرعة الماء فجاء سنناً.. وسنن الطريق معالمها الظاهرة كما هي سُنّة رسول الله ﷺ جاءت دفقاً من روح القرآن وتطبيقاً أمثل له (ومن هنا نحن نملك «المثل الأعلى» و «النموذج».. النظرية والتطبيق.. النظرية والتمرين المشهور.. الخ).

إذن: فهذه الرؤية، وبهذا المنهج، نحن نملك مشروعاً.. له منطلق وتوجهات وقسمات.. هي بكل التأكيد تحدث تغييراً جذرياً في مستوى النظر والعمل معاً.. وفي مستوى الرؤية التاريخية... / وقد سبق أن عرضنا لـ«الرؤية التاريخية»

ونعرض - في ما بعد - للتغييرات في النظر والعمل ← بتوضيح الكلام العلمي.. الذي يؤدي إلى عمل تغييري إن شاء الله...

نحو كلام علمي؟!

- منهج .. آفاق.. وإسلامية علمية عالمية ..

إن أول، وأَوْلى، التغيرات في النظر والعمل التي يجدر بنا أن نتوقعها.. هي **تغيرات في الخطاب.. وتغيرات في المنهج.. والآفاق.. وفي نوعية الحلول** الإسلامية التي تقدم..

❖ ❖ ❖

نحو (كلام علمي) أو «وصفة علاجية»:

❖ إن الكلام الذي نعلنه لن يكون من نوع كلام أولئك الذين عندهم الكثير من الكلام المزخرف! ولكن دون جدوى.. أي دون «فكر يعالج الواقع»...

❖ وإن «الكلام» الذي نعلنه - بعد أن فكّرنا في واقعنا - لابد من أن يكون كلاماً علمياً - يعالج الواقع - وعملياً.. يؤدي إلى عمل بعد أن نحدد «الأسلوب» و«الشكل»...

❖ والكلام الذي نعلنه، على حسب ما انتهينا إليه بعد إعمال «فكرنا في الواقع» يتكوّن من:

أ- منهج لتفسير.

ب- آفاق ثقافية.

ج- إسلامية علمية عالمية.

(أ) منهج للتفكير:

❖ يقوم على التفكير في الواقع الموضوعي، فيستبعد الفكر «المثالي» المستقل عن الواقع الموضوعي وقوانينه!.. ذلك النوع من الفكر السهل الذي يأتي ليقول ما يشتهي وما يهوى وما يتخيل وما يتوهم! وبحذلقة لسانية وعبارات منمقة يجترها في كل مناسبة فيؤثر في السامعين بحسن الإخراج اللفظي الذي يعتمد زخرف القول ويوحي بالغرور ويحلق مع الأوهام!!!.. وذلك النوع من الفكر السهل أيضاً الذي يتغنى بالأمجاد!.. وذلك النوع من الفكر الذي يقوم على تصورات وتجريدات لا تمثل الواقع!...

❖ والواقع الموضوعي الذي يتقيد به الفكر إنما هو (كُلٌّ) الواقع الموضوعي.. بجميع الظروف والعلاقات والقوانين التي تحكم هذا الواقع الموضوعي.. فلا نعتمد بعض المعلومات أو المفاهيم المتناثرة.. ولا نتحدث عن أحداث ووقائع منفصلة أو مفاهيم جزئية!.. فلابد من الشمول والنظرة الكلية والمعرفة النظرية بالكل الاجتماعي والظروف والقوانين التي تسوده والوجهة التي يتخذها...

❖ وفكرنا ليس فكراً انفعالياً تحريضياً «وعظياً» ينشر الضجيج، وفكرنا يستبعد الفكر الوصفي القاصر الذي يزور الواقع ويتحدث عنه بضجيج مفتعل ويملك مجموعة شعارات تكرر أمام كل مشكلة كأنها (تميمة) ولا أقول (وصفة).. وبذلك نستبعد التمرد الذي لا يربط نفسه بوقائع الاجتماع وقوانين التاريخ والذي يبدأ بإبراز مجموعة من المهرجين والانتهازيين وينتهي إلى لا شيء...

❖ وفكرنا الثوري، الذي نريد، وهو يعالج الواقع الموضوعي إنما يعالج «الكُلَّ» الاجتماعي باعتباره ظاهرة تحيطها ظروف وتحكمها قوانين.. تسود حياة الأفراد والجماعات والتاريخ.. وبهذا تكون (المعالجة) التي يقدمها محددة تحدد الأسلوب والشكل- وتدفع إلى (عمل) وفق خطة.. الخ.

❖ ❖ ❖

والخلاصة

ومن هنا فالفكر الثوري يأخذ الطريق الصعب . . طريق الاستقراء والإحصاء والاستقصاء والتمحيص والتصنيف ، والتمييز بين الطبيعة الأصلية وبين الظواهر العارضة وبين الاتجاهات الأساسية التي تسود وبين العوارض الثانوية ، وبين الحركة الأساسية وبين الأشكال اليومية التي تتخذها هذه الحركة . والفكر الثوري يسلك هذا الطريق بصبر نضالي ورهبة مخيفة أمام جلال وقدسية المسؤولية التاريخية . . !

والمفكر الثوري يحاول أن يدرك مجرى **واتجاهات الواقع الموضوعي ضمن معرفة للقوانين الأساسية للحركة التاريخية ، وأفق واسع يطل به على عالمه في عصره . . وكل هذا من أجل أن يجري تحولات أساسية في الواقع الموضوعي** . . .

فالفكر الثوري فكر يهتم بـ(وحدة) الظواهر وإدراكها . . مع وعي بالظروف والعلاقات وأثر ذلك في (الحركة) التي لا تقف للإنسان في مسيرته التاريخية والحضارية والتي تحكمها قوانين محددة على الإنسان أن يدركها لكي يدرك آفاق عصره وعالمه ويعرف مكانه ووجهته – وهي آفاق واسعة وشاملة . . .

← . . . فلا بد له من ثقافة . . .

(ب) آفاق ثقافية :

❖ إذا كان الفكر الثوري – أو المفكر الثوري – يحاول أن يكشف عن الواقع باعتباره (كُلاً) مترابطاً له قوانينه التي تحكم (حركته) والتي يمكن فهمها ضمن إدراك قوانين التاريخ وطبيعة المرحلة والمكان في سياق معاملي الزمان والمكان وفعالية الإنسانية .

❖ فآفاق الثقافة الثورية هي نسق من المعرفة التي تصور **واقعاً اجتماعياً لمجموعة من الناس في مكان ما ، في عصر معين ، في مرحلة تاريخية يمرون بها والعلاقات التي تربط بينهم وبينها** .

❖ وخاصة الإنسان في صنع ثقافته ليست غريزية ، ولكن الدور الذي تمارسه في الحياة أشبه ما يكون بالعمل الغريزي . .

❖ والإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يحاول أن يعطي معنى لعلاقاته مع من حوله من أناس وما حوله من أشياء وحياة وكون !

❖ والثقافة أداة تصنيف وترتيب وتوحيد، وهي إذ توحد مجموع العلاقات الاجتماعية تكوّن **أخلاقاً**! . . وهي إذ **توحد مجموع الأشياء من أحداث وألوان وروائح تكوّن الذوق الجمالي**!! **وهي إذ توحد مجموع الظواهر في الحياة والتاريخ تكوّن منطق التاريخ** (أو فلسفة التاريخ) **والمنطق العملي** في الحياة (أو فلسفة التاريخ العلم العملي) . . وهي إذ توحد **مجموع القوانين في الكون والمجال الكوني كله تكوّن العلم!**

بالإضافة إلى ما تفتحه من آفاق في:

❖ **علاقات الإنسان بالإنسان . . مجتمعه وتاريخه! علاقات الإنسان بالمكان . . أرضه وعالمه! علاقات الإنسان بالزمان . . فاعلية وعصراً . . .**

ملاحظة مهمة:

❖ والحقيقة أنه رغم أن طريقة اندماجنا في الطبيعة هي غير طريقة الحيوانات الأخرى . . مما يجعلنا نستشعر امتيازنا بين الأحياء وكأننا لا نخضع للقاعدة العامة – وهذا ما نعبر عنه بتكريمنا بالحرية! «فلكل الكائنات الحية، ماعدا الإنسان، معرفة فطرية بالكون وبأنفسها، وهذه الغريزة تضطرها إلى الاندماج في الحقيقة الواقعية بصورة تامة وأكيدة، فليس لها إذن الحرية في أن تخطئ إذ **إن الكائنات التي وهبت العقل هي وحدها المعرضة للخطأ ومن ثم تكون قابلة للكمال**».

❖ وحقيقة أن الغريزة لدى الحيوانات العليا محاطة بحاشية من الذكاء، إلا أن ذكاءها دائماً وراء الغريزة في أحداث الوجود الرئيسة.

❖ وحقيقة أن قدراتنا العقلية (ملاحظة وتذكراً ومقارنة وحكماً وتجريباً) ما زالت محاطة بحاشية من الغريزة إلا أنها ليست من القوة بحيث تمكننا من أن نكيف سلوكنا بها تبعاً للظروف.

❖ وحقيقة أنَّ **الإنسان بتحرره من الغريزة اكتسب المقدرة على الاختيار وصار عرضة للخطأ . . فالإنسان له أن يختار طريقه** بين جميع الطرق التي أمامه وعليه بإرادته **أن يلزم نفسه** – بمعنى من المعاني – على أن تسير في هذا الطريق دون الآخر!

ولكن :

- خلال مسيرة التاريخ الإنساني أمكننا أن نقوّي حدسنا - بما قالته الأديان قديماً وفلاسفة التاريخ وعلماء الاجتماع والنفس حديثاً - بضرورة خضوع الحياة الاجتماعية والنفسية لقوانين أساسية محددة على الإنسان أن يعرفها ويلتزمها ، وإلا فإن جواب الكون لكل من عصى هذه القوانين هو إلحاق المصائب به .

- وعسى أن يكون هذا الحدس أشبه بحدس العصور القديمة - وقبل أن يتأكد حدسهم علمياً - إن هناك نظاماً واضحاً بديهياً يسود العالم «فالشمس لا تكف قط عن الشروق ، والليل لا يتخلف عن متابعة النهار ، والربيع عن متابعة الشتاء ويسير القمر دائماً في دورة واحدة لا تتغير» ! . . «والأشياء التي توجد على الأرض وفي السماء ناشئة من تركيب عناصر أولية تقل عن المائة (أو تزيد عليها قليلاً) ! . . وإذا كانت هذه الأشياء لا تحصى عدداً فإنها ، مع ذلك ، ترتبط جميعها برباط وثيق ويتبع كل منها الطريقة التي حددها له تركيبه وليس من الممكن أن تسلك الطبيعة مسلك الهوى !» والكائنات الحية كالكائنات غير الحية مكونة على نحو معين ، والحياة متجانسة مع الوسط الكوني ، والوسط الكوني متجانس مع الحياة ! وهذا الحدس الذي يقوم على الإيمان بالاضطراد الجوهري هو الذي أدى إلى نشأة العلم .

وقد برهن النجاح الهائل الذي أحرزه العلم على أن مثل هذا الاعتقاد ليس خرافة بل على العكس من ذلك . . . هو حدس صادق بتركيب الكون والحياة ، فالعلم لم يستطع التقدم إلا أن الكون والحياة يجهلان الهوى !

- وإذا كان هذا الحدس - الذي قالته الأديان وبدأ يقول به العلم أخيراً - في صيغته التي تقول : «أغلب الظن أن نجاح الحياة الأخلاقية والاجتماعية يتوقف على قواعد محددة تحديد القاعدة الخاصة بخلط الغازات وانتشار الأمواج الضوئية وإن كانت أكثر منها تعقيداً» .

وإذا كان هذا الحدس سيثبت أنَّه صادق فإنه علينا : أن نعرف قوانين الحياة . . وان نلتزم بها «إيماناً» . . «ونسلم» أنفسنا بتواضع لهذه القوانين . . حتى تحقق السعادة لأنفسنا «ونتقي» المصائب التي هي جواب الكون والحياة لكل من عصى هذه القوانين ! . . وبذلك «نحسن» لأنفسنا (وهذا هو الإسلام علمياً) .

(ج) نحو إسلامية علمية – عالمية؟!

هل يمكن للإسلام أن يعالج مشكلات هذا العصر؟ . . بل هل يمكن للإسلام أن يعالج مشكلات الحياة دوماً؟

وعلى هذا فموضوع بحثنا: هل يمكن للدين أن يكون إيديولوجية للحياة؟ (أو الدين والمجتمع العصري).

بمعنى: هل نظام الحياة الفكري والعلمي الذي جاءت به الكتب السماوية (وفيما يخصنا القرآن) يصلح أن يكون معبراً عن علاقات وقوانين الواقع الإنساني (بأبعاده الزمانية والمكانية والمجتمعية. . الخ) حاضراً ومستقبلاً؟!

ولا شك أن هذا السؤال يطرح أمام الباحث المواضيع التالية:

- ما نظام الحياة الفكري والعملي الذي جاء به القرآن؟

2- إذا كان مقياس الصلاحية هو ملاقاة علاقات وقوانين الواقع الإنساني حاضراً ومستقبلاً فما هذه العلاقات والقوانين؟ . . وكيف واجهها الدين؟!

وما الحركة التاريخية الصاعدة نحو المستقبل؟ وهل الدين في صفها. . . (تصور نقدي يتجاوز الواقع؟!).

ولاشك في أن النقاش يمكن أن يأخذ مناقشة أوسع. . . بتناول مقياس الصلاحية وتوضيح أن الإنسان لا يبدل غير الإنسان بمجرد وصوله إلى مرحلة تاريخية معينة – وبالتالي يصير النقاش حول ملاءمة الدين لفطرة الإنسان. . ويكون النقاش حول معرفة قوانين الفطرة. . .

كما أنه يجب أن يعمق بتوضيح مقياس المفاضلة بين أيديولوجية وأيديولوجية. . الخ.

<u>وعلى كل</u>، فلنبدأ البحث بتعرف الواقع الإنساني عامة. . ما هو؟ . . . وماذا عنه مستقبلاً. . . بعلاقاته وقوانينه التي تحكم هذه العلاقات؟ . . .

❖ ❖ ❖

الواقع الإنساني

الواقع هو المجال الوجودي . . الذي نسميه العالم . . العالم بأبعاده الزمانية . . وأبعاده المكانية . . والآخرين بعالم أشيائهم . . وعلاقاتهم وأفكارهم وتاريخ كل هذا . . .

ونحن نتصل بهذا العالم من طريق وعينا . . بعد أن نقطع مراحل الوجود الجسماني الضروري بالمجال الوجودي . . الذي نسميه العالم ، ولكنه ليس الاتصال الواعي الراشد . . .

. . . وهكذا ، فنحن بصدد حديث ذي أبعاد عديدة ، منها عالم الزمان وعالم المكان والغير والآخرين وتاريخهم . . الخ – إضافة إلى حديث عن وعينا والوعي الراشد خاصة؟!.

وإذا كان من أمر واضح في كل هذا فهو أن **الإنسان يستنير من الماضي ، والماضي الذي يستنير منه ما ينبغي له أن يكون غير الحكمة التي قام البرهان** على حقيقتها ، **وهو يريد أن يعيش حاضره بإشراق ، وهو يعيشه بإشراق إذا لم يكن منغلقاً على نفسه** . . . أو بالأدق إذا كان **منفتحاً على الغير . . . بمعنى العالم الذي يعيش فيه . . . وبمعنى الآخرين** – الذين إن لم يعرف علاقة الاخوة بينهم وبينه ، فإنه سيكون إما خاضعاً متمرداً أحياناً أو متجبراً متخاذلاً أحياناً أخرى؟؟

. . . والحقيقة أنَّ الإنسان إذا لم يعرف المعرفة الضرورية التي تربط بينه وبين غيره . . سواء أكان إنساناً أو عالم الأفكار دخلت قلبه الوحشة والوحشية وتاه في سيره؟!

ومن هذه النقطة إما أن يتوجه نحو المستقبل مطمئناً مع إخوانه . . أو يكون بأناه متبرماً بكل أحد . . وبكل شيء . . ويزداد سخطاً وهلعاً وجزعاً وقساوة؟!

فالإنسان في لحظة اختيار دوماً . .

ولا بد له من اختيار؟ . . ولابد من أن يعرف كيف يختار؟ . . ولابد من أن يعرف ماذا يختار؟

- فكيف يعرف أن يختار؟

- وماذا يختار؟

كيف يجب أن يختار . .؟

إنه يجب أن يختار كما قلنا ما يحافظ به على الصلة بالماضي، **وبالحرص على إشراق الحاضر، وبالتوجه إلى المستقبل** بعزيمة وتوكل ليطمئن ويتحمل سائر المشقات للتخطيط . . حتى لا يدخل فيه وهو في ظلام كالأعمى . . .

وهو يفعل هذا بعقل راشد أي بعد الوصول إلى حالة الرشد . . أي بعد الخروج من الحجْر والوصاية؟!

فإذن يجب أن **يختار** الإنسان **باستقلال عقلي كامل** . . ويرفض الحجر والوصاية من **أوهام قومه أو من لغطهم في أسواقهم أو دعاوي المهرجين والأصنام على المسرح أو** انحصاره في كهفه الخاص؟!

أو بتعبير القرآن الكريم عليه أن **يرفض** «**هذا ما وجدنا عليه آباءنا**» وعليه **أن يدعهم في** «**خوضهم يلعبون**» . . . «إنْ يتبعون إلا الظن» **كما أن عليه ألا يلتفت إلى أكابرهم** . . . **ويتجنب اتباع الهوى** . . .

والإنسان قد يعاني ألماً حين يجرد نفسه من كل هذه الظلمات والجهالات . . بل قد يتملكه الارتعاد؟! . . ولكنه يريد الحقيقة، والحقيقة لا تنير نفساً قد أظلمت بالجهالات، والحقيقة نور . . والنور هو المصباح الذي يوضع في الكوة غير النافذة ولكنها لابد من أن تعكس أضواءه . . ثم يزجي النور بعضه بعضاً فإذا هو يزداد توقداً أو بريقاً ويزداد تلألؤاً كأنه كوكب دري . . الخ .

وهذا الإنسان يرفض أن يوضع في قفص . . أو يتصرف في عقله حزب يقول له : 2+2=17 وإذا لم تفعل هذا فأنت رجعي؟!

وعليه فلا بد من الاختيار . . ولابد من أن يكون اختياراً يحفظ الصلة بالماضي، ويحرص على إشراق الحاضر، ونتوجه إلى تخطيط المستقبل . . . الخ

- ولابد من أن يكون اختيار العقل الراشد . . .

فماذا يختار؟

- ماذا يختار . .؟

إنه يختار ما يتفق مع الكيفية التي اتبعها في الاختيار . . إنه يختار ما يحفظ الصلة بالماضي، ويحقق إشراق الحاضر، ويوجه نحو المستقبل بعزيمة وتوكل . . .

. . . إنه يختار ما يحقق العقل والرشد . . .

وهو يختار ما يتفق مع منهجية العلم في البحث عن الثوابت والمستقرات التي نحيل من خلالها التعدد إلى وحدة؟!

← فالعلم يفسر مظاهر الطبيعة والاجتماع، التي لا تقع تحت حصر بتجاهل ذاتية الأشياء والأحداث والتركيز على العناصر المشتركة لاستنتاج بعض السنن التي تسودها وتعطيها معنى؟!

فهو يختار نظاماً ينتظم الكل في وحدة؟!

. . . ويوجه إلى الانسجام بدلاً من الفوضى والتعدد والتشتت والتناقض؟!

المستقبل الإنساني.. والاختيار؟!

وإذا قدر للمستقبل أن يكون إنسانياً . . وباختيار إنساني . . يحفظ الماضي، ويوافق إشراقه الحاضر . . ويكون بخطة وبرشد عقلي . . وبمنهجية علمية . . الخ.

إذا كان ذلك كذلك **فإنه لا بد من أنه صائر إلى وجهة ترى أن الإنسانية أسرة واحدة، وأن الأنبياء والرسل فيها إخوة، وأن الدين واحد، فلا يكون التنوع إلا من أجل الوحدة، فلا شعب مختاراً ولا عنصرية . . ولا تفرقة بين الأنبياء والرسل ولا إكراه في الدين الواحد .**

وإذا كان ذلك كذلك فإنه لا بد من أنه صائر إلى نظام اجتماعي عماده الأخوة، فلا استبداد بالرأي، ولا استعباد ولا استغلال . . وإنما الشورى والتكافل والتضامن . .

أما في وجهته نحو تخطيط المستقبل فعماده السلام والعدل وتحرير المستضعفين وإصلاح وفوز . . مع التشديد على **تحرير العقل من التقليد وتحديده الديمقراطية**

بدكتاتورية الأحزاب أو تحايل مرضى العقول بجنون العظمة وسيطرتهم واستبداد المخادعين . . مع إبعاد الهوى أو طالبي شهوة السلطان.

ويكون ذلك باستقلال العقل والسيادة للشرع والسلطة للأمة وترشيح أهل الرأي لمن هم أهل للأعمال . . ومن طلب الأمر لا يعطاه، والفضوليون كثير؟!

أما منهجية العلم فهي أن يكون للإنسان نظرة «مجردة - بسيطة - تركيبية وشاملة» . . تنزه الفكر البشري عن الوثنيات بحيث لا يطاطئ إلا للحق (لا لجاه زعيم ولا لمال وطبقة ولا لعصبية؟) على أنها ببساطتها تركب تركيبة شاملة ينتظم فيها الكل، بحيث نهايتها تكون مترتبة على البداية، وتقفل النقطة في دائرة الجولة العقائدية بالبداية مع الاتصال؟!

المستقبل الإنساني.. وجهته من واقع اليوم

. . وإذا كنا قد قلنا: إنه إن أحسنت الإنسانية التقدير فإنها سائرة إلى الوجهة التي نعقلها والتي نتمناها، فلعلنا إن أحسنا الملاحظة وجدنا الإنسانية تتجه تلك الوجهة فعلاً . على أنه أن ندرك أن نقطة واحدة من الزمان، كنقطة واحدة من المكان، لا تدل على شيء في ذاتها ولا تدل على ما حولها . .

نحن ندرك وجهة التاريخ بفترة منه . . بين النقطة الحاضرة والنهاية الأبدية . .

فإذا رجعنا إلى حوادث التاريخ من مطلعه . . ففهمنا وجهته . . لوجدنا أنه **يتجه نوعاً وجماعات وأفراداً وجهة هي الوجهة التي نعقل والتي نتمنى، ويمكننا أن نجملها كما يلي :**

1 - «**فالنوع الإنساني** ينتمي في تاريخه المعروف من التفرق في الموقع والمصلحة إلى التضامن في جو الأرض وفي مرافق المصلحة العالمية، وينتقل من القبيلة إلى الشعب، إلى الجمعيَّة الدينية القومية، إلى التوازن بين مجموعة من الفئات الدولية، إلى هذا الاشتباك المتلاحم في سياسة العالم ومواصلاته وعلاقاته، إلى الوحدة التي أوشكت أن تكون وحدة للكرة الأرضية أمام غيرها من العوالم والأفلاك. . . »

2 - **والطوائف الصغيرة** : . . كانت ليست مجرد مجموعات حسابية من الأفراد، بل إنها ظواهر اجتماعية ولكنها ظواهر ترتبط بتركيبة بنية الأمة، فهي وإن

كانت تبرز في التدافع الاجتماعي . . وحركة المجتمع . . مما سمي حديثاً بحرب الطبقات ، إلا أنها لا تبرز وجهة تاريخية خاصة بمعزل عن حياة الأمة التي تحتويها .

ومع كل ، فإنه يمكن أن يؤخذ من تجارب العصر الحديث أن هذه الطبقات ذات وجهة تاريخية تؤثر في مجموع الحوادث وأنها تميل إلى التوازن والتعاون أو التقارب والتضامن كلما ارتقى النظام الاجتماعي في الأمة ومضى مجارياً - ولم يمض مدابراً - للوحدة العالمية . .

3 - **ويظل الإنسان الفرد** - رغم تفاعله وفاعليته في النوع والجماعة - له تاريخ ، ولعله أوضح - فيما نرى - من وجهة النوع كله كما تبينت من الانتقال المتابع من تضامن القبيلة المنعزلة إلى تضامن العالم الذي تمتنع فيه العزلة على من يريدها .

فلا شك أن التاريخ ينتقل بالإنسان الفرد من حالة مبهمة مهملة إلى حالة الشخصية المستقلة بحقوقها وتبعاتها ، المتميزة بكيانها وحرمتها .

فمن فرد لا تتميز حياته من حياة أبناء القبيلة إلى «شخصية» محددة المعالم تحاسب بعملها ولا تؤخذ بجريرة غيرها .

«وليس للتفاضل بين الإنسان والإنسان مقياس واحد أصدق من المقياس الذي نستمده من وجهة التاريخ بالنسبة إلى الإنسان الفرد كما كان وكما يكون مع تعاقب الأطوار وتتابع الأجيال ، وأوجز ما يقال في المقياس الذي نستمده من وجهة التاريخ أنه **المقياس الذي ينبئ عن تكامل الشخصية الإنسانية في حقوقها وتبعاتها**» .

4 - ومع أن الغرض الذي قدرناه للتاريخ هو غير بعيد عن الواقع **في وجهة التاريخ بالنسبة إلى النوع أو الجماعة أو الفرد التي تبرز مع الزمن وجهة تاريخية** ، إلا أنه يمكننا إتماماً للبحث وإرضاءً لروحه . . وإرضاءً لمن لا يؤمنون بتطور إلاّ في ميدان الآلة ، أو قوى الإنتاج أو الطاقة ، يمكننا أن نقدم لهؤلاء قصة الحكمة الخالدة التي تنجلي لنا من وراء تاريخ الإنسان .

(أ) فالآلة وإن قصدها الإنسان سلاح حرب فها هي تصير على غير قصد منه دعامة سلام . . فتطوير الأسلحة النووية والأسلحة الفتاكة عموماً ، وبما أدى ويؤدي إليه من بروز شبح الفناء فرض - وسيفرض في عالم الغد - تراجع فكرة الحرب العالمية .

«لقد رفعت الحضارة الغربية طاقة الإنسان إلى مستوى غير مألوف، وعندما وصلت هذه الطاقة إلى درجتها تلك قلبت كل حقائق التاريخ، وأدخلت فيه عنصر قوة يطبعه بطابع الشمول - وبذا **وجدت الشعوب جميعاً نفسها وكأنها نقلتها سفينة واحدة إلى مصير واحد**، فهي تشعر شيئاً فشيئاً - بفضل التطورات التكنولوجية وبخاصة في الميدان الذري - بأن عليها أن تجتاز مجتمعة بعض المراحل الحاسمة.. وأن تعالج بعض المشكلات الجوهرية».

وهكذا نرى..

وحدة التاريخ تتأكد في القرن العشرين.. وستتأكد أكثر في القرن القادم إن شاء الله...

(ب) **ثم إن استمرار الثورة العلمية في أبعادها الأخرى صار يقدم وعوده الكبرى في أن يهيئ شروط المعيشة التي يتم فيها التدارك للنقص في الأقوات والأرزاق بتسخير التكنولوجيا في استخراج الأقوات والأرزاق من الأرض البور ومن المواد المستصلحة للغذاء ومن ذخائر الطبيعة التي أهملها الإنسان** إضافة إلى توفير شروط المعيشة الصحية وفنون العمل والوقاية.. الخ.

(ج) **ومن وعود الثورة العلمية في مجال المواصلات تقصير المسافات واختراقها في أسرع مدة ممكنة مما سيوصل على مزيد من ترابط شعوب العالم** - بل إن عالمنا يرتبط بعلاقات مشتبكة **وله اتصالات في مجال الأفكار من يوم أن ولدت الطبيعة وتوالت الاختراعات في مجال المواصلات الفكرية بالإذاعة والإذاعة المرئية.. الخ.**

وكل ذلك سيؤكد كل يوم معاني السلام والعدالة والحرية واستقلال الشخصية الإنسانية.

فنحن إزاء تأكيد روح الوحدة دون إلغاء للتمايز... أما ترى أنه في اللحظة نفسها التي تسير فيها الشعوب إلى وحدتها، فإنها تؤكد خصائصها وتنوعاتها الداخلية؟!.. أما ترى أن عصر ظهور نظرية انقسام الذرة هو عصر ظهور نظرية المجال التي تحاول أن توحد كل نظريات العلوم؟!

فالإنسانية تبحث عن توحيد ووحدة، وهي تدرك تنوعاتها وتجليات الواحد الأحد الذي هو كل يوم في شأن؟!

❖ ❖ ❖

بل، إنها تبحث عن..؟!

المنهاج الذي يتناسق مع نظام الكون كله، فلا ينفرد الإنسان بنهج لا يتناسق مع ذلك النظام.. على حين أنه مضطر إلى أن يعيش في إطار هذا الكون وأن يتعامل بجملته مع النظام الكوني.

والتناسق بين منهج حياة الإنسان ومنهج حياة الكون هو وحده الذي يكفل للإنسان التعاون مع القوى الكونية الهائلة... بدلاً من التصادم معها.. وهو حين يصطدم معها يتمزق وينسحق، ولا يؤدي وظيفة الخلافة في الأرض.

وحين يتناسق مع نواميس الكون ويتوافق يملك معرفة أسرارها وتسخيرها.. والانتفاع بها في حياته.

وإذا كانت الفطرة البشرية متناسقة مع ناموس الكون، فالإنسان حين يتعارض مع ذلك الناموس لا يصطدم مع الكون، بل يصطدم بفطرته.

وكما أن مدار الفلك منتظم تجري فيه الكواكب والسيارات في أفلاكها وتطلع في بروجها ومنازلها، ونعلم من حركاتها الماضية كيف تكون حركاتها التالية، فلا يعقل أن تجري حركات التاريخ الإنساني على غير نسق؟!

ومن هنا، فإنه أقرب إلى العقل أن للماضي رابطة بالحاضر تهدي إلى المستقبل على سبيل هو إلى اليقين أقرب.. أو هو بالأقل على سبيل الترجيح؟!

وإذا كان من يقول بالتدبير المقدَّر لا يستطيع أن يبسط أمامنا هذا التدبير فإنه ليس ملزماً بذلك، ويكفيه في هذا الشأن موقفنا من الأرصاد الجوية التي قد تخطئ أكثر مما تصيب بحكم أنها تنبئنا عن ظواهر طبيعية - هي محكومة بقوانين - لا نستطيع الوقوف على جميع أسبابها وعواملها، ولكنا نفهم أنها أسباب وعوامل قابلة للتقدير الدقيق.. بجميع تفصيلاتها وتقلباتها.. وإن كان إلمامنا بها جميعاً لا زال قاصراً.

لتكن عندنا إذن شجاعة النظريات العلمية، بل هو واجب البحث العلمي لتفسير الظواهر المطردة في تواريخ الأمم؟!

والقول بانتظام المدار لا يعني إنكار أن الحركة قانون من قوانين هذا الكون . . وهذه الحياة بوصفها قطاعاً من الحياة الكونية، وإنما نعني أن الحركة لها نظامها وانتظامها . .

تماماً كما أن لكل نجم ولكل كوكب فلكه ومداره، وله كذلك محوره الذي يدور عليه في هذا المدار . .

وكذلك الحياة البشرية لا بد لها من محور ثابت . . ولا بد لها من فلك تدور فيه . .

وهنا كانت فترات أسلمت النفوس للانتظام في فلكها فسارت . .

اختيار المستقبل هو: الإسلام؟!

ولا أحسب ديناً رأى رؤية لتاريخ الإنسان سادتها الوحدة والتوحيد كالإسلام، فالإنسانية في الإسلام أسرة واحدة . . والأنبياء فيها إخوة – والدين واحد.

وما رأي الإسلام في تنوع الحياة الإنسانية إلا تطبيق لقانون كوني ينتظم كل تنوع في وحدة، أو وحدة من خلال التنوع؟! ولا أحسب ديناً لا يفرق بين الأنبياء والرسل كهذا الدين.

أما الدين في نظر الإسلام فهو واحد، وما توجه البشر وجهة يرتضيها الدين إلا كانوا مسلمين؟!

أما الأخوَّة في علاقات الإنسان بأخيه الإنسان . . أما تحرير المستضعفين . . ومحاربة المترفين . . والدعوة إلى التكافل في غير عصبية أو عنصرية – فرغم وضوحها نجملها فيما يلي:

1 – السيادة للشرع والسلطة للأمة.

2 – الشورى.

3 – المال مال الله والناس مستخلفون، ومن يعمل يجازى بأن يوظف في تسيير مال عام . . المصلحة العامة تفيد من إسناده إلى العامل المجدّ . .

4 – لا مجال للإسراف والمترفين. . والتضامن والتكافل أساس العلاقة في المجتمعات.
5 – التنوع من ذكر وأنثى أو من شعوب وقبائل من أجل التعارف. مع التشديد على الرشد العقلي ومحاربة وتحدي الطغاة وتحايل المرضى. . واستبعاد الهوى وطلب الشهوات. . إلخ.

أما النظرة العقلية المجردة – البسيطة – المركبة والشاملة. . فلا أجد أكثر عقلانية – وتنبيهاً للعقل – من كلمة «لا إله إلا الله» وهي أكثر تجريد وتبسيط يمكن أن يقام عليه بناء كلي شامل:

السلام هو ما يجعل للإنسانية مستقبلاً. .

والإسلام هو دين السلام والوجود كله!!

والإسلام والسلام يشتركان في المادة اللغوية، ومادة (س. ل. م) تفيد في معناها الحسي «التساير في هدوء لا يهيج بعضها بعضاً». . فيقال عن الخيل أنها تسالمت؟!. . كما يفيد «الانقياد» و«السير وفق سنن الطريق»؟!

والسلام هو تحية الإسلام، والجنة دار السلام، والسلام اسم من أسماء الله الحسنى، ومادة (سلم) عامة فيها معنى أن يكون الشيء خالصاً خالياً من العوارض، وفيها معنى الاستسلام للقانون والأمان وإيصال الشيء إلى مكانه؟!

«والسلامة» تتصل في المعنى أيضاً بالانصياع للقوانين والاستسلام لها. كما تتصل المادة اللغوية نفسها بـ«السُّلَّم» الذي يمكن من الحركة المنتظمة ويوصل إلى الأمكنة العالية.

فالإسلام باعتباره تسايراً في هدوء وانسجام؟. . وباعتباره سيراً وفق سنن مع خلو من العوارض ووصول إلى المكان والمستقر بخطى منتظمة وإلى الأعلى دوماً؟!

إن الإسلام باعتباره انسجام الإنسان مع الوجود كله. . بجماده ونباته وحيوانه. . إنما يعني أن يكون الإنسان في نغم كوني. . كله تسبيح؟!

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾. سورة الإسراء/ الآية 44.

بل، ومن الممكن أن يتفق تسبيح الجبال مع تسبيح الإنسان في عرس توحيدي في الكون؟!.

﴿ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ – مع داود. وهكذا يعالج الإسلام مشكلة الإنسان الرئيسة المتمثلة في فقده حسن التوحد مع الطبيعة؟!

فالإنسان يبحث عن طريقة – غير الطريقة الحيوانية – للانسجام والتوحد مع الكون!! والانسجام مع الكون.. هو الإسلام.

❖ فعلاقة الإنسان في الإسلام مع بيئته الطبيعية هي علاقة الانسجام.

❖ وروح التوحد مع كل الكون والحياة تتطابق من باب أولى مع الإنسانية.. باعتبارها أسرة واحدة.

وهكذا، بهذه الهندسة الكاملة للوجود يجد الإنسان نفسه بين معرفتين مكتملتين: معرفة عرفانية هي البداية.. ومعرفة علمية بشرية تقفل النقطة في دائرة هذه الجولة العقائدية، فاكتمال توحيد العقيدة والشريعة مع توحيد الفكر البشري.. ووحدة تميز الإنسانية.

تماماً كما كان القرآن قد أنزل جملة يوم أن طبع على قلب خاتم الأنبياء الرسل محمد صلى الله عليه وسلم ليهدي به ذلك القلب المطهر الغسول، ثم أنزل تفصيلاً منجماً بحسب الآيات التي تعالج الوقائع يكون العالم كله مختبراً تتكرر فيه الأحداث بحسب القوانين ليزداد اليقين بها ويتفتح العقل بها ويهذب السلوك بها.

الإسلام أيديولوجية للحياة.. وفقاً لقوانين الحياة؟!

وهنا علينا أولاً أن نجيب عن سؤالين في الحقيقة. والسؤالان هما:

– ما الذي يجعلنا نعتقد أن هناك قوانين أساسية للحياة البشرية؟

– وما هذه القوانين الأساسية إن وجدت؟

1 – الحقيقة، أنَّ الناس بحدسهم منذ أقدم العصور – وقبل أن يتأكد هذا الحدس علمياً – قد شعروا أن هناك نظاماً واضحاً بديهياً يسود العالم، «فالشمس لا تكف قط عن الشروق، والليل لا يتخلف عن متابعة النهار، ولا الربيع عن متابعة الشتاء، ويسير القمر دائماً في دورة واحدة لا تتغير». «والكائنات الحية كالكائنات غير الحية مكونة على نحو معين، والحياة متجانسة مع الوسط الكوني، والوسط الكوني متجانس مع الحياة».

«والأشياء التي توجد على الأرض وفي السماء ناشئة من تركيب عناصر أولية تقل عن المائة (أو تزيد عليها قليلاً).

وإذا كانت هذه الأشياء لا تحصى عدداً، فإنها مع ذلك، ترتبط جميعها برباط وثيق ويتبع كل منها الطريقة التي حددها له تركيبه، وليس من الممكن أن تسلك الطبيعة مسلك الهوى»!

وهذا الحدس الذي يقوم على الإيمان بالاطراد الجوهري هو الذي أدى إلى نشأة العلم. وقد برهن النجاح الهائل الذي أحرزه العلم على أن مثل هذا الاعتقاد ليس خرافة من الخرافات بل على العكس من ذلك حدس صادق بتركيب الكون، فالعلم لم يستطع التقدم إلاّ لأن الكون يجهل الهوى!

2 – وفي القرون الأخيرة – وبظهور فلسفات التاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس – بدأ حدس الإنسان المعاصر يوجهه وجهة تقول: إن أغلب الظن أن نجاح الحياة الأخلاقية والاجتماعية يقف على قواعد محددة تحديد القاعدة الخاصة بخلط الغازات أو انتشار الأمواج الضوئية، وإن كانت أكثر منها تعقيداً! ولكن هذه القواعد ما زالت مجهولة لدينا (د. ألكسيس كارل).

3 – والحقيقة أنه لم يعد في استطاعتنا ببساطة أن نسمح لأنفسنا بتجاهل النظام الطبيعي للأشياء في توجيه سلوكنا في الحياة.

حقيقة أن طريقة اندماجنا في الطبيعة هي غير طريقة الحيوانات الأخرى مما يجعلنا نستشعر امتيازنا بين الأحياء وكأننا لا نخضع للقاعدة العامة. وهذا ما نعبر عنه بمجال الحرية – ولعله أحياناً بما يجاوز مجال الحرية؟! – الذي يمنحنا ثقة بأنفسنا وتكريمنا.

«فلكل الكائنات الحية، ما عدا الإنسان، معرفة فطرية بالكون وبأنفسها، وهذه الغريزة تضطرها إلى الاندماج في الحقيقة الواقعية بصورة تامة وأكيدة، فليس لها إذن الحرية في أن تخطئ»، إذ إنَّ الكائنات التي وهبت العقل هي وحدها المعرضة للخطأ، ومن ثم تكون قابلة للكمال».

وإذا كانت الغريزة لدى الحيوانات العليا محاطة بحاشية من الذكاء فإن ذكاءها ينمحي دائماً أمام الغريزة في أحداث الوجود الرئيسة.

وكذلك، فإن قدراتنا العقلية (ملاحظة وتذكراً ومقارنة وحكماً وتجريباً) ما زالت محاطة بحاشية من الغريزة ولكنها ليست من القوة بحيث تمكننا من أن نكيف سلوكنا بها تبعاً لظروف العالم.

والإنسان بتحرره من الغريزة اكتسب ميزة القدرة على الاختيار وصار عرضة للخطأ، فالإنسان له أن يختار طريقه بين جميع الطرق التي أمامه، وعليه أن يلزم نفسه - بمعنى من المعاني - على أن تسير في هذا الطريق دون الآخر!

4 - وخلال مسيرة التاريخ الإنساني أمكننا أن نقوي حدسنا بضرورة خضوع الحياة الاجتماعية والنفسية لقوانين أساسية محددة، وقد كان جواب الكون والحياة لكل من عصى هذه القوانين هو إلحاق المصائب!

و«قصارى القول: إن هناك نظاماً للعالم، فسلوك كل كائن يقف على تركيبه وتعبر القوانين الطبيعية عن طبيعة الأشياء، وهي صارمة شاملة صامتة أبدية».

ونحن نتكوَّن من العناصر نفسها التي تتكون منها الأرض والماء والهواء، وتكون جزءاً من الطبيعة. والإنسان بكليته خاضع للقوانين الطبيعية، وهو يندمج في العالم المادي بحواسه، وتكشف له قدراته العقلية طبيعة الأشياء، والإرادة هي التي تدفعه إلى الكدح في الحياة.

والإرادة هي وليد الإيمان بمثل أعلى أو فكرة أيديولوجية!

فالقدرات العقلية والإرادة يقومان لدى الإنسان بالدور نفسه الذي تقوم به الغريزة لدى الحيوانات.

وكلما أحسنَّا استعمال قدراتنا العقلية (من ملاحظة وتذكر ومقارنة وحكم وتجريب) ازدادت قدرتنا على معرفة وسطنا، وكلما ازدادت قدرتنا على التكييف يظل المثل الأعلى يشدنا إلى المستقبل ويلزمنا التضحية والخضوع للقوانين.

ومن الملاحظة والتذكر والمقارنة والحكم والتجريب، ومن المثل الأعلى، تتكوَّن الفكرة أو الأيديولوجية. وعلينا أن نخضع خضوعاً متواضعاً للقوانين التي تطابق بينها وبين طبائع الأشياء الثابتة حتى تحقق السعادة والنجاح لحياتنا أفراداً وجماعات.

❖ ❖ ❖

القوانين الأساسية للحياة البشرية

وعلينا – اتِّباعاً للمنهج العلمي – أن نستخلص قوانين الحياة من ملاحظة الحياة نفسها، إذ ليست هذه القوانين شيئاً آخر غير طبائع البشر الأولية وميولهم الجوهرية وحاجاتهم الضرورية في كل الأزمان والأقطار «فهي الطبائع والميول والحاجات، لا كما تبدو لدى الفرد فحسب، بل كما تتمثل في المجتمع والجنس أيضاً».

حقيقة، إن القوانين الأساسية لحياة الإنسان قد تبدو وكأنها حقائق مجردة، وكأنها مبادئ فلسفية، إلا أننا نعتقد أنه من الممكن أن تكون مجردات قريبة جداً من الحقيقة الواقعية، مشربة بالواقع، وناشئة عن ملاحظة الظواهر بطريقة منتظمة.

فمن منا لا يتحقق واقعياً من:

1 – قانون استمرار الحياة:

والتي مؤداها أن كل فرد صحيح الجسم والعقل يرغب في الحياة.

2 – قانون تكاثر النوع:

فمن الملاحظ حقيقة أن الكائنات الحية مدفوعة إلى التكاثر بدافع لا يمكن مقاومته.

3 – قانون ارتقاء العقل:

فمن الواضح أن الإنسان يمتلك قدرات علمية يتميز بها عن سائر الحيوانات، كما أنه لدى كل فرد يحدث نمو تدريجي للشعور منذ ولادته حتى وصوله إلى أبواب الشيخوخة.

ولكل من هذه القوانين أحكامه، ووظيفته وقصة تطوره خاصة بتاريخه مع الإنسان. وما للإنسان – بمعنى محدود – إلا أن يخضع لهذه الأحكام أو يرفضها، وللخضوع مقتضيات وله ثواب، وللتمرد والرفض مقتضيات وله عقاب!

1 – **قانون استمرار الحياة**.. مسطور في تركيب جسمنا، وهو يعبر عن نفسه بطريقة خاصة جداً في النشاط اللاشعوري لأنسجتنا، وهي وظيفة التكيّف، وتؤدي التحديات إلى تدعيم استجابتنا وقدرتنا التكيف بدلاً من القضاء عليها!

فالوسط الخارجي متغير بحسب جوهره، فلو لم تكن الأجهزة التشريحية الكبرى مزودة بالقدرة على العمل بدون انقطاع على إبطال أثر هذه التغيرات والاحتفاظ بثبات الوسط . . لقُضيَ على الإنسان.

ولقانون التكيف هذا من الأهمية الجوهرية في عالم الأحياء ما للقانون الحراري الديناميكي الثاني في عالم المادة.

ولوظيفة التكيف أشكال متعددة ووسائل مختلفة ولكن هدفها وغايتها واحدة دوماً.

«وقد أصبح هذا التشبث الشديد بالحياة شعورياً إلى حد ما لدى الكائنات البشرية».

- وهذا أمر طبيعي طالما لم يتجاوز قوانين الحياة الأخرى!

أما حين ينقلب هذا الأمر إلى خشية الموت بل كراهيته، أو حين تصبح الحياة الدنيا هي الحياة الأسمى!

في مثل هذه الأحوال يكون هناك خروج بالقانون عن مقتضياته.

ومن الواضح أن من تطور هذا القانون وجد اهتمام الإنسان بالمال - من أرض تقدم الغذاء، وأنهار وعيون وآبار تقدم المياه، وجميع الأشياء اللازمة لبقائنا . .

وهكذا، فمن مقتضيات هذا القانون بذل الجهد، والحياة لا تستمر ولا تزدهر إلا ببذل المجهود، وطالما بذل الإنسان جهده لمقابلة مقتضيات استمرار الحياة كان إنساناً جديراً بصفة الإنسان المتكيف مع قوانين الحياة.

ولكن الخضوع لمقتضيات هذا القانون إن تجاوزت حدها أجبرت الإنسان على الاحتفاظ بما يعتقده الحياة! وهي ليست بحياة.

2 - **وقانون تكاثر النوع** . . يوجد لدى جميع الحيوانات ميل أساسي ثان لا يقل تسلطاً عن ميل المحافظة على الحياة، وهو الميل إلى انتشار النوع. فالكائنات الحَية مدفوعة بدافع لا يمكن مقاومته نحو التكاثر.

والإنسان وحده من بين جميع الحيوانات هو الذي يستطيع أن يجعل من إرادته حائلاً دون انطلاق شهواته الجنسية . . !

ولكن تظل الحقيقة الواقعية أن الشهوة الجنسية أشد الشهوات إلحاحاً بعد الجوع والعطش.

وكثيراً ما يضحي أناس عديدون بثروتهم أو بشرفهم في سبيل الخضوع لدوافع غريزتهم!

❖ ❖ ❖

والحب أقوى من الموت حقيقة لا مجازاً:

والحب يتجاوز الرغبة تجاوز الحريق للهيب عود الثقاب! ولكنه نتاج خفي لإفرازات الغدد والمراكز العصبية والعقل.

وعادة ما يؤدي بالإنسان إلى أن يهب نفسه إلى الأبد لكائن آخر، ويحقق اتحاد الذكر والأنثى بصورة لا تنفصم، فيمكن اتحاد الجنسين باتحاد الروحين. وهذا يكفل للأسرة البهجة والسلام والدوام!

ويبدو أثر هذا القانون في الأنثى بشكل واضح، فلا تُحجِمُ امرأة - إذا لم تكن منحلة - عن التضحية بحياتها في سبيل أطفالها..

وحب الأم لدى النوع الإنساني لا ينقطع.

ومن هنا خطورة فصل الفعل الجنسي عن الإخصاب والحب، إذ ينتهي أخيراً إلى ضياع الأمومة وضياع الحب والتراحم!

كما أن الوالدين عادة يضحيان إرادياً من أجل أبنائهما.

ومن هنا تكون وجهة القانون أيضاً مزيداً من الطاقة أيضاً.

3 - **قانون ارتقاء العقل**.. وهو قانون له مستويات ثلاثة:

أ - قانون ارتقاء العقل خلال تطور الحيوانات والكائنات الحية (نمو المخ، وظهور الذكاء).

ب - قانون ارتقاء العقل خلال تطور النوع البشري.

ج - قانون ارتقاء العقل خلال تطور الفرد.

أ - المستوى الأول:

ونحن حين نقرر أننا سنبدأ حديثنا عن قانون ارتقاء العقل من عند تطور الحيوانات نتغاضى عن قصد - وحتى لا نثير جدلاً - عن الرأي الذي يقول بالفكرة

الموجهة في كل مجالات الحياة حتى لدى النباتات والأشجار «أليست نواة البلوط تحتوي على فكرة خالقة تتدرج في النمو شيئاً فشيئاً، حتى تبدو على كمالها في شجرة البلوط. ويبدو أن نمو النوع، كنمو الفرد، يتم بدفع قوة كامنة تنبه التفكير، ولكنه تفكير أعمى مبصر، مبذر ومقتصد، متردد وواثق من نفسه في آن واحد، وهو يختلف عن التفكير البشري اختلافاً شديداً».

على العموم، من المقرر أنه، إن كان العقل عاجزاً عن الظهور لنا في العالم بالمظهر الذي نعرفه عليه اليوم. وقبل أن تصل المادة الحية إلى الحصول على تركيب مناسب، قد تطلب تحقيق هذا التركيب من الحياة تحضيراً لعله استغرق ألف مليون من الأعوام.

وحينئذ ظهر إلى جانب الزواحف الجبارة الغبية (المعروفة بالديناصور) ذات المخ البدائي حيوانات أخرى صغيرة ذكية خفيفة الحركة ذات دم لا تتغير درجة حرارته.

ومنذ ذلك التاريخ بدأ التقدم السريع للمادة العصبية.

ويكفينا هنا أن نسجل ملاحظة هامة في أنه كان من الضروري أن تبلغ المادة درجة ما من الكمال حتى يتسنى للعقل أن يظهر في المادة الحية.

كما أنه ربما لا يكون هنا أي وجود للبراهين التي تدل على انحدارنا من سلف مشترك بيننا وبين القردة، ومع ذلك فمن المؤكد أن المخ تدرج نحو الكمال...

وخلال السلسلة الحيوانية، وعبر ملايين السنين، وصل المجموع العصبي من صورته البدائية لدى الحيوانات الدنيا إلى صورة بالغة التعقيد في المستويات العليا من الحيوانات «ويلاحظ على مخ المرموت (نوع من القردة) والقردة والأناس تزايد في مراكز البصر واللمس وحركات الأطراف».

حقيقة، إن العلاقات بين الظاهرة العقلية والظاهرة العصبية لا تزال غير معروفة، لكننا نعلم أن العقل يقف على كمية المادة المخية وكيفيتها، وعلى الغدد الصماء، ومن الأكيد أيضاً أن الذكاء لا يقف على حجم المخ وحده!! لكن المخ كان ينمو بصورة لا تقاوم بقدر تقدم الذكاء!!

وقصارى القول: أنَّ العقل تابع صعوده ببطء في سلسلة الأشكال الحيوانية خلال مئات من ملايين السنين، ثم ازدادت سرعته، وتابع الإنسان سيره نحو النور رغم كل التحديات الجيولوجية والطبيعية والمجاعات إلخ . .

ومنذ هذه اللحظة واصل العقل ارتقاءه في النوع الإنساني!

ب - المستوى الثاني:

ومنذ أن ظهر العقل البشري من بين المادة، متسلسلاً خلال الكائنات الحية - والحيوانية على وجه التخصيص - عبر فترة من الزمن لا تعتبر أكثر من ساعة . . بالنسبة إلى حياة الفرد . .

منذ تلك اللحظة واصل العقل البشري ارتقاءه في اتجاهين متميزين، وإن كانا متكاملين، وهما اتجاه الذكاء الذي يخلق الفلسفة والعلم، واتجاه العاطفة أي الدين والأخلاق والفن. (والدين هو توحيد العواطف في مثل أعلى موضوعي أمثل، والأخلاق هي محاولة نسبية لتوحيد العواطف في مثل أعلى نسبي!! والفن هو في أغلبه مثل أعلى عاطفي!!)

وقد كانت العاطفة التي تجلت في أشواق الإنسان إلى الحق والخير والجمال متَّخذةً صور الحنفاء الذين يطلبون الحق، ويهتدون بالنور الذي سارت البشرية على هديه منذ فجر ما قبل التاريخ، وصور المصلحين الداعين إلى الخير، والفنانين الذين يسجلون جمال الأشياء ويعبرون عن عشقهم بالشعر والموسيقى . . . إلخ.

كان أولئك علامات ارتقاء العقل في عشقه الحق والخير والجمال واتخاذه لها مُثُلاً عليا تبعث بين بني البشر العدل والمحبة والتآلف والانسجام!!

ولكن البشرية تجاهلت هذا ولم تدرك أهمية تنظيم العلاقات الاجتماعية بما يمنعها من الظلم والحقد والفرقة، ولم تدرك أنه **لا يوجد أي قانون علمي له من الأهمية قدر ما لقانون بقاء العلاقات الاجتماعية من أهمية.**

ولقد اتجه التقدم العقلي لدى البشر بعد ذلك نحو حل مسائل عويصة يعجز عن الوصول إلى حلها الإنسان بعقله المحدود، وقد ظهرت الفلسفة، ثم في ومضة واحدة من ومضات العبقرية ظهر العلم، واستطاع في فترة قصيرة نسبياً أن يكشف

القوانين الجوهرية للعالم المادي وعالم الحياة، وبفضله استطاع بنو الإنسان أن يسيطروا على كل ما يوجد على سطح الأرض، باستثناء أنفسهم!!

والآن تلوح معالم محاولة جزئية مذهلة تفوق كل ما سبقها، وهي الوصول عن طريق العاطفة (والذكاء) إلى ذلك الميدان المجهول الذي يمتد فيها وراء العلم والفلسفة، وهو الميدان الذي يقف الذكاء وحدهُ لدى عتبة في طريقه إليه، وتدفعنا أشواقنا إلى السير نحوه!

وهكذا لا يزال الذكاء والعاطفة، رغم الاختلاط الشامل وإفلاس المذاهب النظرية، يواصلان تقدمهما العظيم.

جـ - المستوى الثالث:

«يظهر الشعور في لحظة معينة من تطور الفرد، كما هو الحال في تطور الأجناس البشرية».

ويُعدُّ هذا التحرر للعنصر العقلي من العنصر المادي، أي من كتلة الخلايا والدم التي تكوِّن الجسم العضوي، شيئاً يقع تحت الملاحظة مباشرة، وهو إحدى الخصائص الجوهرية للمادة التي تتكون منها.

والحياة الإنسانية تبدأ في ليل العقل، ولا تختلف البويضة.. حتى ولو كانت تحتوي بالقوة على عبقرية.. كثيراً عن الكائنات ذات الخلية الواحدة التي كانت تمثل البداية المتواضعة للأحياء على وجه الأرض في أقدم فترة ظهرت فيها الحياة، وفي فترة ما قبل الحيوانات الإركيزدية في العصر قبل الكنبيري. وتنقسم البويضة بعد تلقيحها، وتنشأ المضغة، ثم تصبح المضغة جنيناً، ويولد الطفل.

لكن الليل لم ينقطع بعد، بل يستمر حتى اللحظات المشرقة من لحظات عام الطفل الأول عندما ترى الأم فجر الذكاء يشرق في عين وليدها. وينمو الذكاء بسرعة كبيرة كنور الصباح في المناطق المدارية، إذ إن الطفل الإنساني يقطع في بضع سنين الطريق نفسه الذي ربما لم تقطعه الأشكال الحية في أثناء صعودها نحو العقل إلاّ في ألف مليون سنة!

والحقيقة أن تطور الفرد شبيه بتطور النوع إلى حد ما!

ويحدث النمو والارتقاء العقلي، بالنسبة إلى الفرد من الآلية إلى الإرادة!!

ففي الطفولة الأولى يكون آلياً!

وينمو العقل مع المجموع العصبي وبقية الأنسجة الأخرى في آن واحد، ويكون هذا بفعل القوى الوراثية المستقرة في أصول خلايا المجموع العضوي - ومن شأن هذا التأثير أن يخلع على العقل شيئاً من الشبه بأسلافنا! ولكن يظل للظروف الطبيعية والكيميائية للوسط أثر ما في خروج القوى الوراثية الكامنة في حيز الوجود.

والإنسان لا يصل إلى أوج تقدمه العقلي إلا بإرادته الخاصة.

ومن المعروف جيداً أن نمو العضلات والأعضاء يتطلب بذل المجهود، فالإنسان لا يصبح بطلاً رياضياً إلا بالتدريب.

وكذلك على المرء أن يكد لينمي في نفسه قوى الشعور.

وإذا كان الطالب مجرداً من إرادة التعلم عجز أمهر الأساتذة عن أن يعلمه شيئاً! كما أن قراءة كتاب في الأخلاق لا يجعل قارئه فاضلاً!

وليس في استطاعة أحد أن يصنع لنا نفوسنا!

ولا يستطيع أحد أن يصنع نفسه بدون مثل أعلى ينظم حياته الداخلية وينشئ في ذاته نفساً جديدة قوية.

وبعد مرحلة نمو الشعور مع نمو الجسم في آن واحد تأتي مرحلة لا ينقطع فيها الشعور عن النمو إذا وقف الجسم في نموه.

وتتجه القدرة العقلية في نضوج السن نحو **التعمق والامتداد والشمول المتناسق**! فالعاطفة الدينية والقوة المعنوية والذوق الجمالي، وكذلك الذكاء، تواصل نموها أيضاً في سن الشيخوخة.

د - قمة الارتقاء (أو أعلى المستويات):

إنَّ سر الحياة يكمن في ارتقاء نشاطاتنا العضوية والعقلية والروحية.

وقمة الارتقاء وأعلى مستوياته هو قيم ضبط النفس والذوق الجمالي والمنطق العملي المستند إلى الذكاء والذي هو سبيل العلم والصناعة أيضاً!

وكل هذا هو الثقافة ولب الحضارة الإنسانية؟

❖ ❖ ❖

خلاصة

من حقائق الملاحظة التي لا سبيل إلى نكرانها :

1 – أنَّ الحياة تميل في آن واحد إلى الاستمرار في البقاء وإلى الامتداد والاصطباغ بالصبغة الروحية سمواً وارتقاء بالعقل!

2 – أنَّ قانوني البقاء والامتداد قديمان قدم الحياة.

3 – أنَّ كلاً من هذين القانونين يؤكدان قدرة الإنسان على الاستجابة للتحدّي ببذل الجهد.

4 – أنَّ إرادة الإنسان كانت في هذين القانونين تملك اختيار الرفض، ولكن بقدر معين.

5 – أنَّ قانون السمو الروحي أو المجهود الإرادي في تنمية الشخصية إنما هو خاصة الإنسان.

6 – أنَّ ما يشير إلى تنوع هذه القوانين إنما يؤكد وحدتها.

7 – أنَّ الحياة لا تقيم وزناً إلاّ لمن يطيع قانونها ذا الوجوه الثلاثة.

8 – أنَّ الاختيار صعب بين أوجه من وجوه القانون الواحد! ولكن إن حدث الاختيار فإنَّ **المحافظة على الحياة يضحي بها من أجل استمرار وتكاثر النوع – وكذلك المحافظة على الحياة وشهوة التكاثر يضحّى بها في سبيل الارتقاء الروحي.**

(اعتمدنا في تأكيد القوانين في الحياة على دراسة منشورة لأحد علماء الإنسان المعروفين: العلاّمة الدكتور إلكسيس كارل).

والآن، هل أخذ الإسلام في اعتباره هذه القوانين الأساسية للحياة البشرية؟

وهل **استجاب** لها استجابة تؤكد صلاحيته؟

إن هذا السؤال، في الحقيقة، يطرح بحثاً للإسلام من جانب هام، وهو بحث (الإسلام من حيث صلاحيته)، وهذا الجانب من جانبين هامين آخرين، هما: (الإسلام من حيث صحته) و(الإسلام – أو الدين عامة – من حيث ضرورته)، يؤلف في مجموعه أهم ما يجب أن يشتغل به المسلمون وهم يفكرون في أنجح الوسائل لنشر الإسلام أو معالجة واقع المسلمين أو إعداد دعاته . . .

ونحن نعتقد أن الإسلام هو في أبسط فهم له يعني (الإيمان) بقوانين الحياة الجوهرية و(الإسلام) لها، ولا نعتقد أن (التقوى) شيء آخر غير اتّقاء الانحلال الذي يصيب كل من يعصي قوانين الحياة ولا يسلم نفسه لها، وما (الإحسان) إلا إطاعة قوانين الحياة والسير في وجهتها. . **بحيث يكون «المؤمن - المسلم - المتقي - المحسن» بمثابة المحرك الذي يدور تبعاً لنظام جيد . .**

ونحن نعتقد أن اليقين والعموم الذي يجده المؤمن في إسلامه إنما يعود إلى أنه يخضع ويطيع ويتبع قواعد سلوك منبسطة من الميول الأساسية لطبيعته.

وقواعد السلوك المنبسطة من الميول الأساسية لطبيعتنا ليست أكيدة فحسب، ولكنها عامة أيضاً، فهي لا تتغير تبعاً لآراء كل فرد أو تبعاً للتقاليد أو تبعاً للأقطار والعصور، لأنها لما كانت قائمة على طبائع الحياة الأساسية (أي على تكوين جسمنا وروحنا) أصبحت صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان فيجب على كل كائن أن يخضع لوصايا قوانين الحياة. . .

والخضوع المطلق لهذه القواعد هو وحده الذي يستطيع أن يعيد القوة إلى الحياة الفردية، ويمنح الطمأنينة للمجتمعات الإنسانية.

وقواعد السلوك المنبسطة من قوانين الحياة الأساسية عامة وثابتة في آن واحد، وستظل واحدة في جميع الأقطار وحتى نهاية البشرية. .

ويجب علينا أن نرفض أن نكون (كفاراً) فنتخذ إلهاً - أو مثلاً أعلى - من شهواتنا ورغباتنا التي تسوقنا في اتجاه مخالف لاتجاه تيار الحياة، كما تفصل الدوامات المحلية التي تعترض تيار النهر في مكان ما فتقلب اتجاهه في هذا المكان.

ويجب أن نرفض أن تظل طريقنا دون أيِّ علامات تشير إلى (حدود) المناطق المحرمة، والتي يعتبر تخطيها تدميراً للحياة.

ولكن لا يكفي أن نعرف (الحدود) التي يجب أن نقف عندها، بل لا بد لنا من قانون الطريق وتنظيم الحياة.

والدليل الذي نهتدي به في هذه المرحلة التي هي حياتنا!

المقاصد الشرعية وقوانين الحياة الأساسية

ومزيداً من التوضيح لمدى أخذ (الإسلام) لقوانين الحياة الأساسية في اعتباره، ومدى استجابته الاستجابة الصالحة والصحيحة لمقتضيات هذه القوانين الأساسية.

ومن أجل هذا علينا أن نتذكر أن مقاصد الشريعة الإسلامية كما هو مقرر هي:

1 – المحافظة على الحياة.

2 – المحافظة على النسل.

3 – المحافظة على المال (وهي متفرعة من مبدأ المحافظة على الحياة).

4 – المحافظة على العقل.

5 – المحافظة على الدين (وهي ليست متفرعة من مبدأ المحافظة على العقل فحسب، بل إن الدين كضرورة يعطي للدين مكاناً خاصاً).

ولا أعتقد أنني في حاجة إلى أن أذكِّر بتحريم الاعتداء على النفس والأعراض وعلى الأموال، وتحريم الخمر، وقتل المرتد من قبيل السياسة الشرعية – وما أسميته أخذاً بالدين من حيث كونه ضرورة للحياة الاجتماعية والمحافظة على النظام العام.

ولكن هذه الحدود ليست هي كل ما اتخذه الإسلام استجابة لقوانين الحياة الأساسية، بل إن الإسلام عمل على تعميق الحياة في نفوسنا، وعمل على أن تكون آفاقنا أكثر إتساعاً، كما عمل على أن يدفعنا إلى الأمام في طريق مفتوح يشجع على الإقدام ويشيع البهجة.

والإسلام (شرعة) محددة ومنهاج (مفتوح).

وبكل هذا تجنب الإسلام معايب التخصص المفرط ومعايب التشتت المفرط، وكلاهما عقبة في طريق الارتقاء والسمو!

ولكي نسير إلى الأمام لا بد لنا من المجهود اليومي الصبور والمثابر، ولا بد من بضع دقائق في الصباح ومثلها في المساء نقتطعها لننقطع بكل حواسنا عن ضوضاء العالم الخارجي ونثوب إلى أنفسنا ونحاسبها ونعترف بأخطائنا ونضع خطة العمل الذي علينا أن نقوم به – وهذه هي الصلاة «ولم يحدث قط أن صلى إنسان دون أن يتعلم شيئاً ما»!

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ . سورة فصلت / الآية 35.

وإذا كان البحث بسؤاليه الأساسيين يمكن أن ينتهي إلى هنا، فإن السؤال الثالث لا يمكننا الإلمام به في وريقات محدودة، ولكن يمكننا أن نقول في عجالة:

إن بحث «الإسلام من حيث صلاحيته» يمكن أن يعزز ما انتهينا إليه هنا من أهمية الأخذ بالإسلام، والعمل بمقتضاه، ويمكن أن يؤكّد (علمية) الإسلام – إضافة إلى عالميته!

وكما يقول آرثر هـ. كمتون: «إن فرضية وجود الإله تقدم لنا تفسيراً للكون أقرب إلى العقل من أي تفسير آخر، ويساوي في مشروعيته كثيراً من الفروض على الطبيعة، وقد برهن في الماضي على شدة خصوصيته، فليس هنا أي سبب يدعونا إلى رفضه»!

كما أن بحث (الإسلام – والدين عامة – من حيث ضرورته) سيلزمنا الاهتمام بالدين – والإسلام خاصة – باعتباره ضرورة تلازم الظاهرة الحضارية، كما أن ملازمته للنفس البشرية تقدم الدليل على ضرورته كحاجة نفسية، ولما كان الكون نظاماً متجانساً فإن ثبوت حاجة من الحاجات يشير إلى وجود وسيلة لإشباعها في الوسط الخارجي – مما يؤكد الألوهية والملائكة والكتب والنبوة!

وفي الختام هذه «عجالة»! سريعة عن إسلامية (علمية – عالمية) نعتقد أنها يجب أن تشغلنا قبل أن يشغلنا البحث في تحديد الوسائل والأشكال، إذ إن فاقد الشيء لا يعطيه، وما لم يعد الإسلام حياً في نفوس أهله لا يمكن أن نتوقع أن يقوم أهله بواجب التبليغ والشهادة بالحق!

(ملحق توضيحي)
نظام الحياة الفكري والعملي الذي جاء به القرآن

1 - قلنا في أثناء البحث: إننا لا نحسب ديناً رأى رؤية لتاريخ الإنسان عمادها الوحدة والتوحيد كالإسلام، بل إنه يرى أن تنوع الحياة الإنسانية إنما هو تطبيق لقانون كوني ينتظم كل تنوع، فهو تنوع في وحدة، أو وحدة من خلال تنوع..

2 - ثم أكدنا في أثناء البحث أن الإسلام هو انسجام الإنسان مع الوجود كله.. فيكون الإنسان في نغم كوني.. كله تسبيح.

ثم قلنا: إن هذا القول بالانتظام والانسجام لا يعني إنكار أن الحركة قانون من قوانين الكون.. وقانون من قوانين هذه الحياة - بوصفها قطاعاً من قطاعات الحياة الكونية.

.. وإنما يعني أن الحركة لها نظامها.. تماماً كما أن لكل نجم ولكل كوكب فلكه ومداره، وله كذلك محوره الذي يدور عليه في هذا المدار.

وكذلك الحياة البشرية لا بد لها من محور ثابت.. ولا بد لها من فلك تدور فيه.

3 - وأوضحنا أننا نرى في كلمة «لا إله إلا الله» أكثر تجريد عقلي وتبسيط يمكن أن يقام عليه بناء كلي شامل فتكون لنا نظرة عقلية مجردة - بسيطة - مركبة وشاملة.

فهي في نظرنا المحور الثابت الذي يكون من حوله الفلك والمدار. وهذا ملحق توضيحي..

أيديولوجية تقوم على يقين مركزي ثابت:

وأهم ما يميز أي أيديولوجية تنتسب إلى الإسلام حقاً هي أنها تقوم على يقين مركزي ثابت لا يتوجه فيه الإنسان أو يؤله - أو يكون له أي وله - بوجهة غير وجهة الله، فهو ليس عبداً لأحد غير الله.. إلخ..

ومن عبودية الإنسان لله أن يتحرر من كل عبودية، فهذه العبودية تشعره بأنه لا يمكن أن يكون عبداً لغيره وقد خلقه الله حراً - على قول سيدنا علي كرم الله وجهه: «لا تكن عبداً لغيرك وقد خلقك الله حراً» - كما تشعره هذه العبودية بأنه يقف وسائر

البشر على صعيد واحد فلا يسمح لنفسه باستعباد غيره ويستنكر - كما استنكر سيدنا عمر رضي الله عنه - أن يحاول الإنسان استعباد الآخرين. . فيقول - مع عمر رضي الله عنه -: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»؟!.

ومن هنا، فالحرية في الإسلام ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمساواة - وترتبط الاثنتان أشد الارتباط بالعبودية لله.

وهذا الإعداد هو الذي يعد الإنسان للشعور بأمانة الاستخلاف، فهو خليفة الله في الأرض والمؤتمن على عمليات التعمير - وليس من قوة في الكون إلا وهي مسخرة له وله حق الانتفاع بها، ولكن بعموم بني آدم، أي بشعور الأخوَّة مع الآخرين. . ومع استشعار المساءلة عن النعم التي لا تحصى وتجنب الظلم، فهو راجع إلى الله ليجد ما قدم بين يديه.

وبهذا يتجنب الإنسان شعور الجزع من الفقر، ولكنه لا يقع في شعور الاستغناء والمنع، وليس أخطر على الإنسان من الملك الذي لا يبلى (وما يعد به الإنسان من خلود) في دفعه لتجاوز إنسانيته وطغيانه على إخوانه. . متناسياً حدودية حياته، فيتصور نفسه قائماً بذاته وليس فقيراً إلى الله؟. . والإنسان الذي لا يسأم من دعاء الخير، وإن مسه الشر فيؤوس قنوط، هو الإنسان الذي إذا أذاقه الله رحمته - وهي رحمة من الله نزلت به من بعد ضراء مسته - يقول: (. . . هذا لي وما أظن الساعة قائمة. .).

وهكذا، فإن الإنسان محتاج إلى أن يتجنب شعور الجزع من الفقر، إذ إن شعور الجزع هذا قد يجعل منه عبداً للأشياء.

إلاّ أنّه أيضاً يجب أن يظل على ذكر من افتقاره إلى الله، إذ إنّه إذا شعر بأنه قد استغنى فإنه يطغى.

ومما لا ينبغي للإنسان أن ينحصر في اللحظة أو يتسمّر في حيز ضيق. . . فيرى الدنيا أكبر همّه.

والحقيقة أن مشكلة الإنسان الرئيسة هي أنه حين فقد حس الحيوان القديم في «التوحد» مع الطبيعة. . وجد نفسه واقعاً **في شباك «الحاضر»** و**«البيئة الضيقة»**

و«**الأنا**» **المتضخم**. . ولا حل لهذه المشكلة إلا بتوحده من طريق **توسيع مدى الفكر بالذاكرة والخيال . . بالاستنارة من التاريخ والتطلع إلى المستقبل، مع إشراق الحاضر بآفاق بعيدة ورحبة وعواطف الأخوة الفياضة . . .**

❖ ❖ ❖

السبع المثاني.. والقرآن الكريم:

وإني لأرى حالة التوحد أو «السلام» مع الكون والحياة وما حولنا . . إلخ التي نستشعرها ونحن نقف لصلاتنا نقرأ الفاتحة تقدم لنا أمراً يتجاوز بكثير ما حاوله بيتهوفن في سيمفونيته التاسعة . . حين أراد أن نسمو بالفكرة إلى نوع من الآفاق ونفاذ البصيرة يمكّن لنا من حالة توحد أو سلام مع الطبيعة .

ولقد كتب «هندميت» مغناة سماها «هارمونية العالم» ، «عن كيلر» ، وعند ذروتها كان يفترض أن توحي الموسيقى بدوران النجوم والأجرام السماوية ، ولكن موسيقى هندميت عجزت عن الوصول إلى ما كانت تهدف إليه ومع هذا فإنه يظل بوسع المرء أن يتصور موسيقاراً عبقرياً مؤهلاً للنجاح ينقل الجماهير إلى حالة تخيلية بقطعة موسيقية هائلة **تعكس بطريقة ما كلاً من النظام الكوني والوعي الإنساني في قمة بصيرته .**

❖ والفاتحة التي يتلوها «الموحد» ، «المسلم» تبدأ بـ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ . . وهو نوع من دخول الإنسان في سيمفونية كونية ، فكل ما في الكون يسبح بحمد الله وفقاً للتصور القرآني . .

وهو تسبيح يمكن أن يتفق مع تسبيح الإنسان . . فيكون الكون كلُّه في عرس وتوحيد .

❖ ويلي الحمد مباشرة أنه حمد لله ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ . . والرب والربوبية والتربية من مادة واحدة – تفيد النمو .

أما ﴿ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فهي الآفاق الواسعة التي تشرق بها حياة الإنسان فيتناغم مع كلّ ما في الكون والحياة حتى إنه لا يرى في كلّ تنوعات الكون والحياة إلاّ وحدة متناغمة تنتظمها قوانين ولكنها واحدة .

وهذا يتلاقى مع منطق التوحيد والإسلام، فالإنسان في توافق مع بيئته ومع الإنسانية كلها التي يراها أسرة واحدة - والأنبياء إخوة، والناس في الدين إخوة - وما تنوعها واختلاف الألسنة والألوان إلاّ مظهر آخر من مظاهر التنوع في الوحدة أو الوحدة من خلال التنوع الذي يسري على كلّ ذلك الحشد من الظواهر الطبيعية التي هي أدلة على وجوده عز وجل..

وفي هذا يقول تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ «سورة الروم: الآيات من 17 إلى 24».

وبما أنني من الذين يرون أنه من الخير أن يتصل الإنسان بالقرآن من طريق مباشر، وألا تكون صلته به من طريق فلان أو فلان.. لذلك فإنني أؤثر أن أترككم مع انطلاقته الموحية تفتحون لها صدوركم فتشرحها بالهدى وتلهمها الرشاد..

على أن هذا لا يمنعني أن أسوق آيات أخرى من القرآن تتحدث بمماثلة ملحوظة عن تنوع الألسنة والألوان بين الناس ونسوقها بين حشد حاشد من تنوع في آفاق البيئة الطبيعية:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ «سورة فاطر: الآيتان 27 و28».

كما أنني لن أمتنع عن ملاحظة أن الآية الأولى وهي التي تخبرنا عن تنوع بين الناس، والثانية التي تخبرنا عن تنوع الغطاء الصخري والنباتي وعالمي الحيوان والإنسان، إنما تنتهي أولاهما بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾، وتنتهي ثانيتهما بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ فهذا هو الربط بين هذه الظاهرات وضرورة البحث العلمي.

وانطلاقاً من الأساس نفسه - التنوع في الوحدة أو الوحدة من خلال التنوع - يعالج القرآن التنوع في المكان والقبائل، فتوزع الناس في شعاب الأرض ونفوسهم إلى قبائل إنما هو للتعارف:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ «سورة الحجرات: من الآية 13».

ولكن هنا إشارة مهمة إلى قانون آخر يتوسط بين التوحيد والوحدة والتنوع.. هنا إشارة إلى قانون الزوجية..

وهذا القانون هو الخطوة التالية لخلق النفس الواحدة، وهو الخطوة السابقة على التنوع إلى رجال كثير ونساء..

فالخالق واحد، والنفس الإنسانية واحدة، ومن هذه النفس خلق الله زوجها.. ومن هذه الأسرة الأولى جاء الناس: رجالاً كثيراً ونساءً.

والتقوى التي هي مقياس إكرامنا قرنت ﴿ وَالْأَرْحَامَ ﴾ هنا دلالة على الصلة الإنسانية التي تربط الناس جميعاً بعضهم ببعض، مهما تناءت الديار، وتعاقبت العصور، واختلفت الألسنة والألوان، وتباين الوضع الاقتصادي والاجتماعي، ونحن مأمورون أن نتقي الله في أوامره، والتطبيق الأول لتقوى الله هو رعاية الإخاء الإنساني الكبير.. الذي يعقب الله عليه بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾. سورة النساء/ الآية 1.

❖ **وهكذا تكتمل سورة الفاتحة بحديث الرحمة والمساءلة يوم الدين فتكون العبودية الحقة والاستعانة به وحده جل وعلا..** وهنا لا بد من وقفة خاصة مع إقامة الوجه لله والاستقامة التي أمرنا بها والصراط المستقيم الذي نطالب أن يهدينا إليه..

فالمسلم القرآني أو المسلم الكامل الذي يعمل فيه القرآن عمله.. فيكون عنده السمع والبصر والفؤاد مسؤولاً - هو الذي يتلقى من الكون والبيئة والطبيعة والإنسان أحسن ما فيها فيستوقد في مشكاته مصباحاً سيزجي النور أرتالاً بعد أن تحترق فيه أخلاط الوجود الظلامي مثل شاسة النوار (كلمة من وضع العلامة العلايلي ترجمة «كلوب» والملحظ في الوضع: المضيء نفسه) التي لا تضيء إلا بعد أن تحترق.

وهي من النوّار كالفؤاد (الفؤاد من المفأد.. وهو مكان احتراق - تنطلق منه دفعات النور أرتالاً أرتالاً) من الإنسان لا يجيء إليه من السمع والبصر شيء حتى يستحيل بما لابسه موجوداً آخر بألوان أخرى..

وبذلك لا يكون المسلم مشكاة فيها شمعة، بل شمعة كبيرة في مشكاة الوجود.

❖ وعلى مثال المنار يقف المسلم القرآني أو المسلم الكامل يلوّح بالشعلة في يديه ليجمع الضالين والتائهين في مذاهب الحياة، ويقول كلمة الله على فمه ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

❖ ❖ ❖

النظرة المجردة البسيطة والتركيب الكلي الشامل؟!

وعلى كل فإن الإنسان الموحد المسلم... وبنظرته التي تنطلق من أعظم نظرة عقلية مجردة وبسيطة - تتمثل في «لا إله إلا الله».

... إن هذا الإنسان يقيم أعظم نظرة تركيبية كلية وشاملة تتمشى في أنه ما إن يبدأ بالتوحيد وإسلام النفس لله كإسلام الكون والحياة، حتى ينتهي إلى الحرية والمساواة.. وتأكيد كرامة بني آدم وجدارتهم بالاستخلاف وأداء الأمانة في ما سخر لهم.

فالكرامة للإنسان، والتراحم الأسري، والتكافل الاجتماعي، والتعارف الإنساني.. تؤكد أننا أمام نظام إنساني متفتح لكلّ الإنسانية.. متسامح غير متزمت.. مفتوح غير منغلق.

❖ أما إنها أعظم نظرة عقلية مجردة وبسيطة فواضح من كونها تنطلق من أنه ليس كمثله شيء؟!. . فهي تنزه الفكر البشري عن كل تعلق بالحوادث والأشياء والأشخاص، فلا يطأطئ رأسه لأي وثن أو صنم.

❖ ومن فكرة التوحيد والوحدانية نجد أنفسنا أمام وحدة النفس الإنسانية ووحدة الإنسانية ككل. . إلخ.

فالأسرة رباط يوحّد بين اثنين خُلقا من نفس واحدة؟! والجماعات ما جعلت درجات إلا ابتلاء لها كي تتضامن وتتكافل؟! والإنسانية ما تنوعت إلى شعوب وقبائل إلا للتعارف؟!

بل إن هذه الوحدة يمثلها تاريخ الإنسان وواقعه ومصيره. .

- فالخالق واحد. .
- والدين واحد، والأنبياء والرسل إخوة، وعباد الله إخوة. .
- وأخيراً فالمصير واحد.

فنحن إزاء فلسفة للتاريخ بسيطة وواضحة لا تعقيد فيها ولا غموض، فالله الذي خلق فسوّى. . هو الذي قدر فهدى، وهدى الإنسان مبدئياً - تكريماً له وإبتلاءً - إلى النجدين. . على أنه إن جاهد نحو الهداية الحقة (أو تزكية النفس) هداه الله. . إلى المستوى الإنساني الحق.

❖ وهي عقيدة متسامحة غير متزمتة أو متعسفة، إذ لا إكراه في الدين!. . وكلٌّ مسؤول.

❖ وهي نظام عرفاني مفتوح غير منغلق على نفسه، وذلك من وجوه:

- من الناحية العقلية: الاجتهاد هو سبيل التقدم فيما يتحتم إعمال الرأي فيه. . أخذاً بعدم التحجير على العقل والتفكير. .
- من الناحية العملية: بذل الجهد هو اساس الجزاء، ولا جزاء بلا جهد، ومن هنا أبيحت الملكية وقيدت بعد معاني الربا «أي كل زيادة لرأس مال لا يقابلها جهد. .».
- ومن الناحية الاجتماعية: على كل منا مجاهدة نفسه، والجهاد ضد العدوان والظلم. .

- مع التشديد على الشورى . . بحثاً عن الحقيقة .

فضبط النفس ، والبحث عن الحقيقة - وعدم تخريب الحياة . .

❖ وتنتهي هذه النظرة إلى البحث عن الانسجام مع التسبيح الكوني المرتل لحمد الله فيكون الإنسان مسبحاً بحمد الله . . على علم . .

وإذا كانت أول كلمة في الوحي هي ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ لكي يقرأ الإنسان باسم ربه الذي خلق ، فإنه - بعد أن أحاطه كرم الله فعلّمه ما لم يعلم - يسبح بحمد الله ويستغفره طالباً التوبة عن **أخطائه التي تعلّم عِبَرَها** . .

والزمان محصور بين اسم الرب والتواب كدفتين للوجود . .

والإنسان بتوجيه الرحمن الرحيم يعمل لإصباغ هذه الحياة بصبغة الله ؟ !

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ . سورة البقرة / الآية 138 .

❖ ❖ ❖

المحتوى

1 – منهجٌ للتفكير 7
2 – كيف نطبّق منهج التفكير 9
3 – نُطبِّقُ المنهج على واقعنا 13
4 – الرسالة الخاتمة 21
5 – خاتمة في ما تُقدِّمُه رؤيانا 39
6 – المحاضرة الثانية 45
7 – تطبيق المنهج على فكرنا 46
8 – المحاضرة الثالثة 59
9 – القوانين الأساسية للحياة البشريَّة 83
10 – ملخص توضيحيّ 95